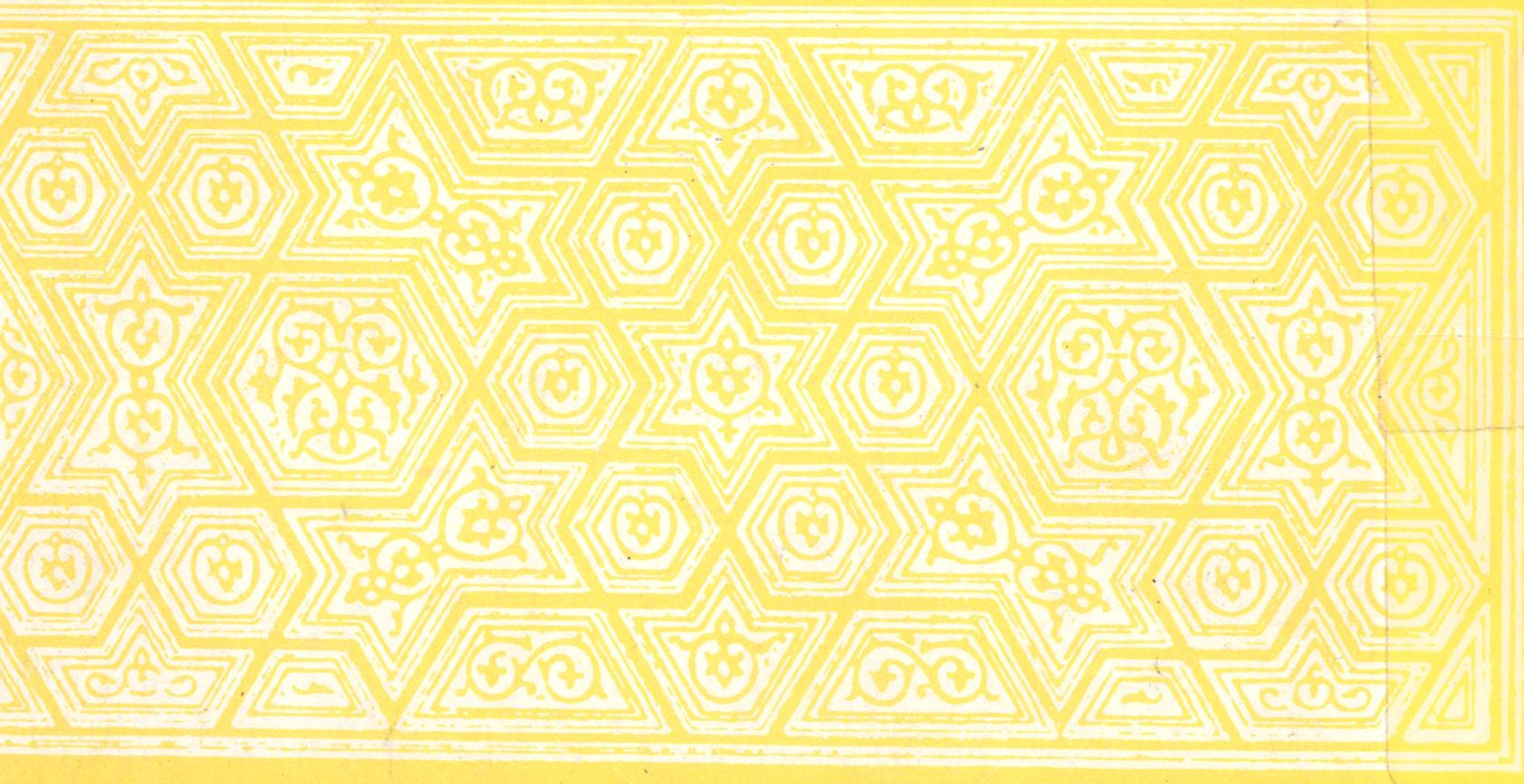
خالد محمّد خالد

الجزء الرابع

رجال حول الرّسول






رجال حول الرسول

خالد محمد خالد

الجزء الرابع من



الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

فى هذا الكتاب

صفحة

مراجع الكتاب

١ – الإصابة ، فى تمييز الصحابة — للإمام ابن حجر العسقلانى

٢ – الاستيعاب ، فى أسماء الأصحاب — للحافظ ابن عبد البر

٣ – السيرة النبوية — لابن هشام

٤ – حلية الأولياء — للحافظ أبى نعيم الأصبهانى

٥ – الطبقات الكبرى — للحافظ محمد بن سعد

٦ – البداية والنهاية — للحافظ ابن كثير

العَبّاسُ بن عَبْدالمُطّلب
ســـاقِى الحــرَمَيْن

فى عام الرَّمادة، وحين أصاب العباد والبلاد قحط وبيل، خرج أمير المؤمنين عمر، والمسلمون معه، إلى الفضاء الرَّحب يُصَلُّون صلاة الاستسقاء، ويضرعون إلى الله الرحيم أن يرسل إليهم الغيث والمطَر.

ووقف عمر، وقد أمسك يمين العباس بيمينه، ورفعها صوْب السماء وقال:

«اللهم إنا كُنا نستسقى بنبيك وهو بيننا..

«اللهم وإنا اليوم نستسقى بعَمِّ نبيك، فاسْقِنا»..

ولم يغادر المسلمون مكانهم حتى جاءَهُم الغيث، وهطل المطر،

يزُفُّ البُشرى، ويمنحُ الرِّىَّ، ويُخصِبُ الأرض..

وأقبل الأصحاب على العباس يعانقونه، ويُقبِّلونه، ويتبركون به وهم يقولون:

«هنيئًا لك..

ساقِىَ الحرَمَيْن»...

فمن كان «ساقى الحرمين» هذا..؟

ومَنْ ذا الذى توسَّل به عمر إلى الله.. وعُمر مَنْ نعرف تُقًى وسَبْقًا ومكانةً عند الله وعند رسوله ولَدى المؤمنين..؟؟

إنه «العبَّاس» عَمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم..

كان الرسول يُجِلُّه بقدر ما كان يُحبه، وكان يمتدحه ويُطْرى سجاياه قائلا:

«هذا بقيَّة آبائى»...

* * *

«هذا العباس بن عبد المطَّلب أجودُ قريش كَفًّا وأوصَلُها»..!!

وكما كان «حمزة» عَمَّ الرسول وتِرْبَه، كذلك كان العباس، رضى الله عنهما..

فلم يكن يفصل بينهما فى سنوات العمر سوى سنتين أو ثلاث، تزيد فى عمر العبَّاس عن عمر الرسول..

وهكذا كان محمد، والعباس عمه، طفلين من سِنٍّ واحدة، وشابَّيْن من جيل واحد..

فلم تكن القرابة القريبة وحدها، آصِرَةَ ما بينهما من وُدّ، بل كانت كذلك زمالة السِّنّ، وصدَاقة العمر..

وشىء آخر تضعه معايير النبى فى المكان الأول دومًا.. ذلك هو خُلق العباس وسجاياه..

فلقد كان «العباس» جوادًا، مُفرط الجود، حتى كأنه للمكارم عَمّها أو خالها..!!

وكان وَصولاً للرَّحِم والأهل، لايضِنُّ عليهما بجهد ولا بجاه، ولا بمال..

وكان إلى هذه وتلك، فَطِنًا إلى حدِّ الدهاء، وبفطنته هذه التى تعزِّزها مكانته الرفيعة فى قريش، استطاع أن يدْرَأَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام حين جهر بدعوته الكثير من الأذى والسوء..

* * *

كان «حمزة» كما رأينا فى حديثنا عنه من قبل يعالج بَغْىَ قريش، وصَلَف أبى جهل بسيفه الماحق..

أما العباس، فكان يُعالجها بفطنة ودهاء أَدَّيا للإسلام من النفع مثلما أدت السيوف المدافعة عن حقه وحماه..!!

فالعباس لم يُعلن إسلامه إلا عام فتح مكة، مما جعل بعض المؤرخين يعدونه مع الذين تأخر إسلامهم...

بَيْدَ أن روايات أُخرى من التاريخ تنبئ بأنه كان من المسلمين المبكِّرين، غير أنه كان يكتُم إسلامه..

يقول «أبو رافع» خادم الرسول صلى الله عليه وسلم:

«كنتُ غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخَلَنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأَسْلَمت أُمُّ الفضل، وأَسْلَمْتُ... وكان العباس يكتم إسلامه»..

هذه رواية «أبى رافع» يتحدث بها عن حال «العباس» وإسلامه قبل غزوة بدر...

كان العباس إذن مسْلمًا..

وكان مقامه بمكة بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه

خطَّةً أدت غايتها على خير نسق..

ولم تكن قريش تخفى شكوكها فى نوايا «العبَّاس»، ولكنها أيضًا لم تكن تجد سبيلا لمحادَّته، لاسيما وهو فى ظاهر أمره على ما يرضَوْنَ من منهج ودين..

حتى إذا جاءت «غزوة بدر» رأتها قريش فرصة تبلو بها سريرة العباس وحقيقته..

والعباس أَدْهى من أن يغفل عن اتجاهات ذكر المكر السيئ الذى تعالج به قريش خَسَراتها، وتنسج به مؤامرتها...

ولئن كان قد نجح فى إبلاغ النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة أنباء قريش وتحركاتها، فإن قريشًا ستنجح فى دفعه إلى معركة لا يؤمن بها ولا يريدها.. بيد أنه نجاح موقوت لن يلبث حتى ينقلب على القرشيين خسارًا وبوارًا..

* * *

ويلتقى الجمعان فى غزوة بدر...

وتصطكُّ السيوف فى عنفوان رهيب، مقررة مصير كل جمع، وكل فريق..

وينادى الرسول فى أصحابه قائلا:

«إن رجالا من بنى هاشم، ومن* غير بنى هاشم، قد أُخْرجوا كَرْهًا، لا حاجة لهم بقتالنا.. فمن لقى منكم أحدهم فلا يقتله...

«من لَقِيَ أبا البَخْتَرِيّ بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله...

«ومَنْ لقى العبَّاس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخْرِج مُسْتكْرهًا»...

لم يكن الرسول بأمره هذا يخصُّ عمه العبَّاس بمزية، فما تلك مناسبة المزايا، ولا هذا وقتها..

وليس محمد - عليه الصلاة والسلام - من يرى رءوس أصحابه تتهاوى فى معركة الحقِّ، ثم يشفع والقتال دائر لعمه، لو كان يعلم أن عمه من المشركين..

أجلْ...

إن الرسول الذى نُهِيَ عن أن يستغفر - مجرَّدَ استغفار - لعمه أبى طالب، على كثرة ما أَسْدَى أبو طالب له وللإسلام من أياد وتضحيات..

ليس هو – منطقًا وبداهة – من يجىء فى غزوة بدر ليقول لمن يقتلون آباءهم وإخوانهم من المشركين: استثنوا عمى ولا تقتلوه..!!

أما إذا كان الرسول يعلم حقيقة عمه، ويعلم أنه يطوى على الإسلام صدره. كما يعلم أكثر من غيره، الخدمات غير المنظورة التى أدّاها للإسلام.. كما يعلم أخيرًا أنه خرج مُكْرَهًا ومُحْرجًا فآنئذ يصير من واجبه أن يُنقذ مَنْ هذا شأنه، وأن يَعْصم من القتل دمه ما استطاع لهذا سبيلا...

وإذا كان «أبو البخترى بن الحارث» وهو الذى لم يُعْرَف له إسلام يخفيه، ولم يناصر الإسلام سرًّا كما كان يناصره العباس.

كل فضيلته أنه لم يكن يشارك سادة قريش فى إنزالهم الضُّرَّ والظلم بالمسلمين، ولم يكن يرضى عن صنيعهم ذاك، وأنه خرج معهم إلى غزوة بدر مُحْرجًا ومكرهًا..

إذا كان «أبو البخترى» وهذا شأنه، قد ظفر بشفاعة الرسول لدمه حتى لا يُهْدَر، ولحياته كى لا تُزْهَق..

أفلا يكون جديرًا بهذه الشفاعة، مسلم يكتم إسلامه..

ورجل له فى نصرة الإسلام مواقف مشهودة، وأخرى طوى عليها ستر الخفاء..؟؟

بلى... ولقد كان العباس ذلك المسلم، وذلك النصير.

ولْنَعُد للوراء قليلا لنرى...

* * *

فى بيعة العقبة الثانية عندما قدم مكة فى موسم الحج وفد الأنصار، ثلاثة وسبعون رجلا وسيدتان، ليعطوا الله ورسوله بَيْعَتَهُم، وليتفقوا مع النبى عليه السلام على الهجرة إلى المدينة، أنهى الرسول إلى عمه العباس نبأ هذا الوفد، وهذه البيعة.. وكان الرسول عليه السلام يثقُ بعمه فى رأيه كله.

ولما جاء موعد اللقاء الذى انعقد سرًّا وخُفْية، خرج الرسول وعمه العباس إلى حيث كان الأنصار ينتظرون..

وأراد العباس أن يَعْجُم عود القوم ويتوثَّق للنبى منهم..

ولْنَدع واحدًا من أعضاء الوفد يروى لنا النبأ، كما سمع ورأى.. ذلكم هو «كعب بن مالك» رضى الله عنه:

«... وجلسنا فى الشِّعْب ننتظر رسول الله صلى الله

عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب..
وتكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج، إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا فهو فى عزٍّ من قومه ومَنعَة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم...

«فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك..

«وإن كنتم ترَوْنَ أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم، فمن الآن فَدَعُوه»..

كان العباس يلقى بكلماته الحاسمةالحازمة هذه، وعيناه تُحَدِّقان كعينى الصقر فى وجوه الأنصار... يتتبع وَقْعَ الكلام وردود فعله العاجلة...

ولم يكتف العباس بهذا، فذكاؤه العظيم ذكاء عملى يتقصى الحقيقة فى مجالهاالمادى، ويواجه كل أبعادها مواجهة الحاسب الخبير. هنالك استأنف حديثه مع الأنصار بسؤال ذكى ألقاه، ذلك هو:

«صفوا لِىَ الحرب، كيف تقاتلون عدوكم»!!؟؟

إن العباس بفطنته وتجربته مع قريش يدرك أن الحرب لا محالة قادمة بين الإسلام والشرك، فقريش لن تتنازل عن دينها ومجدها وعنادها.

والإسلام ما دام حقًّا لن يتنازل للباطل عن حقوقه المشروعة..

فهل الأنصار - أهل المدينة - صامدون للحرب حين تقوم..؟؟

وهل هم - من الناحية الفنية - أكفاء لقريش، يجيدون فن الكر والفَرّ والقتال..؟؟

من أجل هذا، ألقى سؤاله السالف:

«صفوا لِيَ الحرب، كيف تقاتلون عدوكم»..؟؟

كان الأنصار الذين يُصْغون للعباس رجالا كالأطواد...

ولم يكد العباس يفرغ من حديثه، لا سيما ذلك السؤال المثير الحافز حتى شرع الأنصار يتكلمون...

وبدأ عبد الله بن عمرو بن حرام مجيبًا على السؤال:

«نحن - والله - أهل الحرب.. غُذِينا بها، ومُرِنًا عليها، وورِثْناها عن آبائنا كابرًا فكابرًا...

«نَرْمي بالنَّبْل، حتى تفني...

«ثم نُطاعِنُ بالرِّماح، حتى تُكْسر...

«ثم نمشي بالسيوف، فَنُضَارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا»..!!

وأجاب العباس متهللا:

«أنتم أصحاب حرب إذن، فهل فيكم دروع»..؟؟

قالوا:

«نعم.. لدينا دروع شاملة»..

ثم دار حديث رائع وعظيم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم وبين الأنصار.. حديث سنعرض له – إن شاء الله – فيما بعد

* * *

هذا هو موقف العباس فى بيعة العقبة...

وسواء عليه، أكان يومئذ اعتنق الإسلام سرًّا، أم كان لا يزال يفكر، فإن موقفه العظيم هذا يحدد مكانه بين قوى الظلام

الغارب، والشروق المقبل، ويصور أبعاد رجولته ورسوخه..!!

* * *

ويجيء يوم «حُنَين» ليوكد فدائية هذا الهادئ السَّمْت، اللين الجانب، وليبرز فوق أرض المعركة، ذلك النوع من البطولة التى تملأ الزمان والمكان حينما تدعو الحاجة إليها، ويهيب الموقف بها، بينما هى فى غير ذلك الظرف المُلِحّ، مستكِنَّة تحت الأضلاع، متوارية عن الأضواء..!!

* * *

فى السنة الثامنة من الهجرة، وبعد أن فتح الله مكة لرسوله ولدينه عز على بعض القبائل السائدة فى الجزيرة العربية أن يحقق الدين الجديد كل هذا النصر بهذه السرعة...

فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشَم وآخرون. وقرروا شَنَّ حرب حاسمة ضد الرسول والمسلمين...

إن كلمة «قبائل» لا ينبغى أن تخدعنا عن طبيعة تلك الحروب التى كان يخوضها الرسول طوال حياته، فنظن أنها كانت مجرد مناوشات جبلية صغيرة، فليس هناك حروب أشد ضراوة من حروب تلك القبائل فى معاقلها..!!

وإدراك هذه الحقيقة لا يعطينا تقديرًا سديدًا للجهد الخارق الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فحسب، بل يعطينا تقديرًا صحيحًا وأمينًا لقيمة النصر العظيم الذى أحرزه الإسلام والمؤمنون؛ ورؤية واضحة لتوفيق الله الماثل فى هذا النجاح وذلك الانتصار..

* * *

احتشدت تلك القبائل فى صفوف لَجِبة من المقاتلين الأشداء..

وخرج إليهم المسلمون فى اثنى عشر ألفًا..

اثنا عشر ألفًا..؟؟

وممن..؟؟

من الذين فتحوا «مكة» بالأمس القريب، وشيعوا الشرك والأصنام إلى هاويتها الأخيرة والسحيقة، وارتفعت راياتهم تملأ الأفق دون مُشَاغب عليها أو مزاحم لها..!!

هذا شيء يبعث الزهو..

والمسلمون فى آخر المطاف بشر، ومن ثَم، فقد ضعفوا أمام الزهو الذى ابتعثته كثرتهم ونظامهم، وانتصارهم الكبير بمكة، وقالوا:

«لَنْ نُغْلَبَ اليوم عن قِلَّة»..

ولما كانت السماء تُعِدُّهم لغاية أجلَّ من الحرب وأسمى، فإن ركونهم إلى قوتهم العسكرية، وزهْوَهم بانتصارهم الحربى، عمل غير صالح ينبغى أن يَبْرَءُوا منه سريعًا، ولو بصدمة شافية...

وكانت الصدمة الشافية هزيمة كبرى مباغتة فى أول القتال، حتى إذا ضَرَعُوا إلى الله، وبَرِئُوا من حَوْلِهِم إلى حَوْلِه، ومن قوتهم إلى قوته، انقلبت الهزيمة نصرًا، ونزل القرآن الكريم يقول للمسلمين:

﴿... ويومَ حُنَيْنٍ إذ أعجبتكُمْ كَثرَتُكُمْ فلم تُغْنِ عنكم شيئًا، وضَاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَت، ثم وَلَّيْتُمْ مُدْبرين. ثم أنزل الله سَكينتَهُ عَلَى رسولِه وعَلَى المؤمنين، وأنزل جنودًا لم تَرَوْها، وعَذَّبَ الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين﴾...

* * *

كان صوت العباس يومئذ وثباته من ألمع مظاهر السكينة والاستبسال.. فبينما كان المسلمون متجمعين فى أحد أودية تِهَامَة ينتظرون مجىء عدوهم، كان المشركون قد سبقوهم إلى الوادى

وكمنوا لهم فى شِعَابِه وأحنائه، شاحذين أسلحتهم، ممسكين زمام المبادرة بأيديهم..

وعلى حين غفلة، انقضوا على المسلمين فى مفاجأة مذهلة، جعلتهم يُهْرَعون بعيدًا، لا يَلْوِى أحد على أحد...

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثه الهجوم المفاجئ الخاطف بالمسلمين، فعلا صهوة بغلته البيضاء، وصاح:

«إلى أين أيها الناس..؟؟

«هَلُمُّوا إلىَّ...

«أنا النبىُّ لا كَذِب...

«أنا ابنُ عبد المطَّلب»...

لم يكن حول النبى ساعتئذ سوى أبى بكر، وعمر، وعلى ابن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب، وولده الفضل ابن العباس، وجعفر بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأُسامة ابن زيد، وأيمن بن عبيد، وقلة أخرى من الأصحاب..

وكان هناك سيدة أخذت مكانًا عاليًا بين الرجال والأبطال..

تلك هى «أُم سُلَيم بنت مِلْحَان»..

رأت ذهول المسلمين وارتباكهم، فركبت جمل زوجها «أبى طلحة» رضى الله عنهما، وهرولت به نحو الرسول..

ولما تحرك جنينها فى بطنها، وكانت حاملا، خلعت بُرْدتها وشدت بها على بطنها فى حزام وثيق، ولما انتهت إلى النبى صلى الله عليه وسلم شاهرة خنجرًا فى يمينها ابتسم لها الرسول وقال:

«أم سليم؟؟»..

قالت:

«نعم.. بأبى أنت وأُمى يا رسول الله..

«اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل»..

وازدادت البسمة ألقًا على وجه الرسول الواثق بوعد ربه وقال لها:

«إن الله قد كفى وأحسن يا أُم سليم».. !!

* * *

هناك ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الموقف، كان العباس إلى جواره، بل كان بين قدميه آخذًا بخطام بغلته، يتحدى الموت والخطر..

وأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يصرخ فى الناس، وكان العباس جسيًا جهورى الصوت، فراح ينادى:

«يا معشر الأنصار...

يا أصحاب البيْعَة»...

وكأنما كان صوته داعِيَ القَدَر ونذيره...

فما كاد يقرع أسماع المُرْتاعين من هول المفاجأة، المُشَتَّتين فى جنبات الوادى، حتى أجابوا فى صوت واحد:

«لَبَّيْكَ... لَبَّيْك»...

وانقلبوا راجعين كالإعصار، حتى إن أحدهم ليحرن بعيره أو فرسه، فيقتحم عنها ويترجَّل، حاملا درعه وسيفه وقوسه، مُيَمِّمًا صَوْب صوت العباس...

ودارت المعركة من جديد... ضارية، عاتية..

وصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الآن حَمِيَ الوَطِيس»...

وحمى الوطيسُ حقًّا..

وتدحرج قتلى هَوَازن وثقيف، وغلبتِ خيلُ الله خيلَ اللات،

وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين..!!

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العباسَ عمه حبًّا كبيرًا، حتى إنه لم ينم يوم انتهت غزوة بدر، وقضى عمه ليله فى الأسر..

ولم يُخْفِ النبى عليه السلام عاطفته هذه، فحين سُئل عن سبب أرَقِهِ، وقد نصره الله نصرًا مؤزَّرًا أجاب:

«سمعتُ أنين العباس فى وثاقه»...

وسمع بعض المسلمين كلمات الرسول، فأسرع إلى مكان الأسرى، وحلَّ وثاق العباس، وعاد فأخبر رسول الله قائلا:

«يا رسول الله...

إنى أرخيت من وثاق العباس شيئًا»...

ولكن لماذا العباس وحده..؟

هنالك قال الرسول لصاحبه:

«اذهب، فافعل ذلك بالأسرى جميعًا»..

أجل، فحب النبى صلى الله عليه وسلم لعمه لا يعنى أن يميزه

عن الناس الذين تجمعهم معه ظروف مماثلة..

وعندما تقرر أخذ الفدية من الأسرى، قال الرسول لعمه:

«يا عباس...

افْدِ نفسك، وابنَ أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل ابن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو وأخا بني الحارث ابن فهر، فإنك ذو مال»..

وأراد العباس أن يغادر أسره بلا فدية، قائلا:

«يا رسول الله، إني كُنتُ مسلمًا، ولكن القوم استكرهوني»..

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أصرَّ على الفدية، ونزل القرآن الكريم في هذه المناسبة يقول:

﴿ يٰأيها النبيُّ قل لمن فى أيديكم من الأسْرَى إنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فى قلوبكم خيرًا يُؤْتِكُم خيرًا مما أُخِذَ منكم ويَغفرْ لكم، واللهُ غفور رحيم ﴾

وهكذا فدى العباس نفسه ومن معه، وقفل إلى مكة راجعًا... ولم تخدعه قريش بعد ذلك عن عقله وهُداه، فبعد حين جمع ماله

وحمل متاعه، وأدرك الرسول بخيْبَر، ليأخذ مكانه فى موكب الإسلام، وقافلة المؤمنين... وصار موضع حب المسلمين وإجلالهم العظيم، لا سيما وهم يرون تكريم الرسول له وحبه إياه وقوله عنه:

«إنما العباس صنْوُ أبى..

فمن آذى العباس فقد آذانى».

وأنجب العباس ذرية مباركة.

وكان حَبر الأمة «عبد الله بن عباس» واحدًا من هؤلاء الأبناء المباركين.

* * *

وفى يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة اثنتين وثلاثين سمع أهل العوالى بالمدينة مناديًا ينادى:

«رحم الله من شهد العباس بن عبد المطلب».

فأدركوا أن العباس قد مات..

وخرج الناس لتشييعه فى أعداد هائلة لم تعهد المدينة مثلها..

وصلى عليه خليفة المسلمين يومئذ «عثمان» رضى الله عنه.

وتحت ثرى البقيع هدأ جثمان «أبي الفضل» واستراح..

ونام قريرَ العين، بين الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه !!

أبو هُـــرَيْـرَة

ذَاكِـرَةُ عَصْـرِ الوَحْىْ!!

صحيح أن ذكاء المرء محسوب عليه..

وأصحابُ المواهب الخارقة كثيرًا ما يدفعون الثمن فى نفس الوقت الذى كان ينبغى أن يتلقوا فيه الجزاء والشكران..!.

والصحابى الجليل «أبو هريرة» واحد من هؤلاء..

فلقد كان ذا موهبة خارقة فى سعة الذاكرة وقوتها..

كان رضى الله عنه - يُجيد فنَّ الإصغاء؛ وكانت ذاكرته تجيد فن الحفظ والاختزان..

يسمع، فيعى، فيحفظ، ثم لا يكاد ينسى مما وعى كلمة ولا حرفًا مهما تطاولَ العمر، وتعاقبت الأيام..!!

من أجل هذا هيأته موهبته ليكون أكثر أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم حفظًا لأحاديثه، وبالتالى أكثرهم رواية لها..

فلما جاء عصر الوضّاعين الذين تخصصوا فى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتخذوا أبا هريرة غَرَضًا، مستغلين أسوأ استغلال سمعته العريضة فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وراحوا كلما لَفَّقُوا حديثًا يقولون: قال أبو هريرة..!!

وكادوا بفعلهم هذا يضعون سمعة أبي هريرة ومكانته كمحدث عن النبى عليه الصلاة والسلام موضع الارتياب والتساؤل، لولا تلك الجهود البارة والخارقة التى بذلها أبرار كبار نذروا حياتهم وكَرَّسوها لخدمة الحديث النبوى ونفى كل زيف ودخيل عنه..

هنالك نجا «أبو هريرة» رضى الله عنه من أخْطبوط الأكاذيب والتلفيقات التى أراد المفسدون أن يتسللوا بها إلى الإسلام عن طريقه وأن يُحَمِّلوهُ وِزْرَها وأذاها..!!

والآن .. عندما تسمع واعظًا، أو مُحاضرًا، أو خطيب جمعة يقول تلك العبارة المأثورة: «عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم...»..

أقول: عندما تسمع هذا الاسم على هذه الصورة، أو عندما تلقاه كثيرًا، وكثيرًا جدا فى كتب الحديث، والسيرة ، والفقه، والدين بصفة عامة، فاعلم أنك تلقى شخصية من أكثر شخصيات الصحابة إغراء بالصحبة والإصغاء..

ذلك أن ثروته من الأحاديث الرائعة، والتوجيهات الحكيمة التى حفظها عن النبى عليه الصلاة والسلام، قلَّ أن يوجد لها نظير..

وإنه - رضى الله عنه - بما يملك من هذه الموهبة، وهذه الثروة، لمن أكثر الأصحاب مقدرة على نقلك إلى تلك الأيام التى عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم، وإلى التحليق بك - إذا كنتَ وثيق الإيمان مُرْهَف النفس - فى تلك الآفاق التى شهدت روائع محمد وأصحابه.. تعطى الحياة معناها، وتُهْدِى إليها رُشدها ونهاها..

وإذا كانت هذه السطور قد حركت أشواقك لأن تتعرف لأبى هريرة وتسمع من أنبائه نبأ، فَدُونك اذن وما تريد..

إنه واحدٌ من الذين تنعكسُ عليهم ثورة الإسلام بكل ما أحدثته من تغييرات هائلة..

فمن أجِير إلى سَيِّد..

ومن تائه فى الزحام، إلى عَلَم وإمام..!!

ومن ساجد أمام حجارة مركومة، إلى مؤمن بالله الواحد القهار..

وهاهو ذا يتحدَّث ويقول:

[نشأت يتيمًا، وهاجرت مسكينًا.. وكنتُ أجيرًا لِبُسْرَة بنت غزوان بطعام بطنى..!!

«كنتُ أخْدمهم إذا نزلوا، وَأَحْدُو لهم إذا ركبوا..

«وهأنذا وقد زوَّجنيها الله، فالحمد لله الذى جعل الدين قَوَامًا، وجعل أبا هريرة إمامًا].. !!

* * *

قدم على النبى عليه الصلاة والسلام سنة سبع وهو بخيبر، فأسلم راغبًا مشتاقًا..

ومنذ رأى النبى عليه الصلاة والسلام وبايعه لم يكد يفارقه أبدًا إلاَّ فى ساعات النوم..

وهكذا كانت السنوات الأربع التى عاشها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم إلى أن ذهب النبى إلى الرفيق الأعلى..

نقول: كانت تلك السنوات الأربع عُمُرًا وحدها.. كانت طويلة عريضة، ممتلئة بكل صالح من القول، والعمل، والإصغاء.

* * *

أدرك «أبو هريرة» بفطرته السديدة الدور الكبير الذى يستطيع أن يخدم به دين الله..

إن أبطال الحرب فى الصحابة كثيرون..

والفقهاء والدُّعاة والمعلمون كثيرون..

ولكن البيئة والجماعة تفتقد الكتابة والكُتَّاب..

ففى تلك العصور، كانت الجماعة الإنسانية كلها، لا العرب وحدهم، لا يهتمون بالكتابة، ولم تكن الكتابة من علامات التقدم فى مجتمع مًّا..

بل إن «أوربا» نفسها كانت كذلك منذ عهد غير بعيد..

وكان أكثر ملوكها وعَلَى رأسهم «شارلمان» أمِّيين لا يقرأون ولا يكتبون، مع أنهم فى نفس الوقت كانوا على حظ كبير من الذكاء، والمقدرة..

* * *

نعود إلى حديثنا لنرى «أبا هريرة» يدرك بفطرته حاجة المجتمع الجديد الذى يبنيه الإسلام إلى من يحفظون تراثه وتعاليمه - كان هناك يومئذ من الصحابة كُتَّاب يكتبون ولكنهم قليلون، ثم إن بعضهم لا يملك من الفراغ ما يمكنه من تسجيل كل ما ينطق به الرسول من حديث..

لم يكن «أبو هريرة» كاتبًا، ولكنه كان حافظًا وكان يملك هذا الفراغ، أو هذا التفرُّغ المنشود، فليس له أرض يزرعها ولا تجارة يتبعها..

وهو إذ رأى نفسه وقد أسلم متأخرًا، عزم على أن يعوض ما فاته، وذلك بأن يواظب على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى مجالسته..

ثم إنه يعرف من نفسه هذه الموهبة التى أنعم الله بها عليه، وهى ذاكرته الرحبة القوية، والتى زادت مضاء ورحابة وقوة، بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحبها أن يبارك الله له فيها..

فلماذا إذن لا يكون واحدًا من الذين يأخذون على عاتقهم حفظ هذا التراث ونقله للأجيال..؟؟

أَجَلْ.. هذا دوره الذى تهيئه للقيام به مواهبه، وعليه أن يقوم به فى غير تَوان..

* * *

لم يكن «أبو هريرة» ممن يكتبون، ولكنه كان كما ذكرنا سريع الحفظ قوى الذاكرة..

ولم تكن له أرض يزرعها، ولا تجارة تشغله، ومن ثم لم يكن يفارق الرسول فى سَفَر ولا فى حَضَر..

وهكذا راح يكرِّس نفسه ودقة ذاكرته لحفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته..

فلم انتقل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، راح أبو هريرة يحدث، ويُحدِّث، مما جعل أصحابه يعجبون: أَنَّى له كل هذه الأحاديث، ومتى سمعها ووعاها..

ولقد ألقى «أبو هريرة» رضى الله عنه الضوء على هذه الظاهرة، وكأنه يدفع عن نفسه مغبة تلك الشكوك التى ساورت بعض أصحابه فقال:

[إنكم لتقولون أكثَرَ أبو هريرة فى حديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم..

«وتقولون: إن المهاجرين الذين سبقوه إلى الإسلام لا يحدثون هذه الأحاديث..؟؟

«ألا إن أصحابى من المهاجرين، كانت تشغلهم صفقاتهم بالسوق، وإن أصحابى من الأنصار كانت تشغلهم أرضهم..

«وإنى كنت امرءاً مسكينًا، أكثر مجالسة رسول الله، فأحضر إذا غابوا.. وأحفظ إذا نَسُوا..

«وإن النبى صلى الله عليه وسلم حدثنا يومًا فقال: من يبسط رداءه حتى يفرغ من حديثى ثم يقبضه إليه فلا ينسى شيئًا كان قد سمعه منى..! فبسطت ثوبى فحدثنى ثم ضممته إلى فوالله ما كنتُ نسيتُ شيئًا سمعته منه.

«وأيْمُ الله، لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكم بشىء أبدًا، هى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلْنَا من البَينَات والهدَى من بعد ما بيَّنَّاهُ للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾..

هكذا يفسِّرُ «أبو هريرة» سرَّ تفرده بكثرة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فهو - أولا - كان متفرغًا لصحبة النبى أكثر من غيره..

وهو - ثانيًا - كان يحمل ذاكرة قوية، باركها الرسول فزادت قوة...

وهو - ثالثًا - لا يُحدِّث رغبة فى أن يتحدث، بل لأن إفشاء هذه الأحاديث مسئولية دينه وحياته، وإلا كان كاتمًا للخير وللحق، وكان مفرطًا ينتظره جزاء المفَرِّطين..

من أجل هذا راح يحدِّث ويُحَدِّث، لا يصدُّه عن الحديث صادٌّ، ولا يعتاقه عائق.. حتى قال له عمر يومًا وهو أمير للمؤمنين:

[لتتركَنَّ الحديث عن رسول الله، أو لألْحِقَنَّك بأرض دَوْس]..

أى أرض قومه وأهله..

على أن هذا النهى من أمير المؤمنين لا يُشكل اتهامًا «لأبى هريرة»، بل هو دَعْم لنظرية كان «عمر» يتبناها ويؤكِّدها، تلك هى: أن عَلَى المسلمين فى تلك الفترة بالذات ألّا يقرأوا، وألا يحفظوا، شيئًا سوى القرآن حتى يقرَّ ويثبت فى الأفئدة، والعقول..

فالقرآن كتاب الإسلام، ودستوره، وقاموسه، وكثرة الحديث

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لاسيما فى تلك السنوات التى أعقبت وفاته صلى الله عليه وسلم، والتى يُجمع القرآن خلالها قد تسبب بَلْبلةً لا داعى لها ولا جدوى منها..

من أجل هذا كان «عمر» يقول:

[اشتغلوا بالقرآن، فإن القرآن كلام الله]..

ويقول:

[أقِلُّوا الرواية عن رسول الله إلا فيما يعمل به]..
[إنك تأتى قومًا لهم فى مساجدهم دَوِىٌّ بالقرآن كدوىّ النحل، فدعهم على ما هم عليه، ولا تشغلهم بالأحاديث، وأناشريكك فى ذلك]..

كان القرآن قد جمع بطريقة مضمونة دون أن يتسرب إليه ما ليس منه..

أما الأحاديث فليس يضمن «عمر» أن تحَرَّف أو تزيف، أو تتخذ سبيلا للكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنيل من الإسلام..

وكان «أبو هريرة» يقدر وجهة نظر «عمر» ولكنه أيضًا كان

واثقًا من نفسه ومن أمانته، وكان لا يريد أن يكتم من الحديث والعلم ما يعتقد أن كتمانه إثمٌ وبَوَار..

وهكذا.. لم يجد فرصة لإفراغ ما فى صدره من حديث سمعه ووعاه إلا حدَّث وقال..

* * *

على أن هناك سببًا هاما، كان له دور كبير فى إثارة المتاعب حول «أبى هريرة» لكثرة تحدُّثه وحديثه..

ذلك أنه كان هناك يومئذ محدِّث آخر يحدِّثُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ويُكْثِر ويُسْرِف، ولم يكن المسلمون الأصحاب يطمئنون كثيرًا لأحاديثه، ذلكم هو «كعب الأحبار» الذى كان يهوديا وأسلم..

* * *

أراد «مروان بن الحكم» يومًا أن يبلو مقدرة «أبى هريرة» على الحفظ، فدعاه إليه وأجلسه معه، وطلب منه أن يحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بينما أجلس كاتبه وراء حجاب، وأمره أن يكتب كل ما يقوله «أبو هريرة»..

وبعد مرور عام، دعاه «مروان» مرة أخرى، وأخذ يستقرئه

نفس الأحاديث التى كان كاتبه قد سطرها، فما نسى «أبو هريرة» كلمة منها!!

وكان يقول عن نفسه:

«ما من أحد من أصحاب رسول الله أكثر حديثًا عنه منى، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه كان يكتب، ولا أكتب»..

وقال عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه:

«أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره»..

وقال البخارى رضى الله عنه:

«روى عن أبى هريرة نحوًا من ثمانمائة أو أكثر من الصحابة والتابعين وأهل العلم»..

وهكذا كان «أبو هريرة» مدرسة كبيرة كُتب لها البقاء والخلود..

* * *

وكان «أبو هريرة» رضى الله عنه من العابدين الأوَّابين، يتناوب مع زوجته وابنته قيام الليل كله.. فيقوم هو ثلثه، وتقوم

زوجته ثلثه، وتقوم ابنته ثلثه..

وهكذا، لا تمر من الليل ساعة إلا وفى بيت «أبى هريرة» عبادة وذِكْرٌ وصلاة !!

وفى سبيل أن يتفرغ لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم عانى من قسوة الجوع ما لم يُعَانِ مثله أحد..

وإنه ليحدثنا: كيف كان الجوع يعض أمعاءه فيشدُّ على بطنه حجرًا ويعتصر كبده بيديه، ويسقط فى المسجد وهو يَتَلَوَّى حتى يظن بعض أصحابه أن به صَرَعًا، وما هو بمصروع..!

ولما أسلم لم يكن يؤودُه ويضنيه من مشاكل حياته سوى مشكلة واحدة لم يَرْقَأ له بسببها جَفْن..

كانت هذه المشكلة هى أُمه: فإنها يومئذ رفضت أن تسلم..

ليس ذلك فحسب، بل كانت تؤذى ابنها فى رسول الله فتذكره بسوء..

وذات يوم أسمعت «أبا هريرة» فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكره، فانفضَّ عنها باكيًا محزونًا، وذهب إلى مسجد الرسول..

ولْنُصغ إليه وهو يروى لنا بقية النبأ:

«... فجئت إلى رسول الله وأنا أبكى، فقلت: يا رسول الله، كُنت أدعو أم أبى هريرة إلى الإسلام فتأبى عَلَىَّ، وإنى دعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة إلى الإسلام..

«فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اهد أم أبى هريرة..

«فخرجت أعدو أُبَشِّرُها بدعاء رسول الله، فلما أتيت الباب إذا هو مُجَاف - أى مغلق - وسمعت خَضْخَضَةَ الماء، ونادتنى: يا أبا هريرة مكانك..

«ثم لبست دِرْعَهَا، وعجلت عن خمارها وخرجت وهى تقول: أشهد ألَّا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..

«فجئت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى من الفرح، كما بكيت من الحزن، وقلت: أبشر يا رسول الله، فقد أجاب الله دعوتك..

«قد هدى الله أم أبى هريرة إلى الإسلام..

«ثم قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يحبِّبنى وأمى إلى

المؤمنين والمؤمنات..

«فقال: اللّهم حبِّب عُبَيْدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة»..

وعاش «أبو هريرة» عابدًا، ومجاهدًا.. لا يتخلف عن غزوة، ولا عن طاعة..

وفى خلافة «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه وَلَّاهُ إمارة البحرين..

و«عمر» كما نعلم كان شديد المحاسبة لولاته..

إذا ولّى أحدهم وهو يملك ثوبين، فيجب أن يترك الولاية يوم يتركها وهو لا يملك من دنياه سوى ثوبيه.. ويكون من الأفضل أن يتركها وله ثوب واحد..!!

أما إذا خرج من الولاية وقد ظهرت عليه أعراض ثراء، فإنه آنئذ لا يفلِتُ من حساب «عمر» مهما يكن مصدر ثرائه حلالا ومشروعًا..!!

دنيا أخرى.. ملأها «عمر» روعة وإعجازًا..!!

وحين وَلِيَ «أبو هريرة» البحرين ادَّخر مالا، من مصادره الحلال، وعلم «عمر» فدعاه إلى المدينة..

ولْنَدع «أبو هريرة» يروى ما جرى بينهما من حوار سريع:

«قال لى عمر:

يا عدو الله، وعدو كتابه، أَسَرَقْتَ مال الله..؟؟

«قلتُ:

ما أنا بعدوّ لله ولا عدوّ لكتابه.. لكنى عدوّ من عاداهما.. ولا أنا من يسرق مال الله..!!

«قال:

فمن أين اجتمعَتْ لك عشرة آلاف..؟؟

«قلتُ:

خيلٌ لى تناسَلَتْ، وعطايا تلاحَقَتْ..

«قال عمر: فادفعها إلى بيت مال المسلمين»..!!

ودفع «أبو هريرة» المال إلى «عمر» ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

«اللّهم اغفر لأمير المؤمنين»..

وبعد حين دعا عمر أبا هريرة، وعرض عليه الولاية من جديد، فأباها واعتذر عنها..

قال له عمر: ولماذا..؟؟

قال أبو هريرة:

حتى لا يَشْتَمُ عرضِى. ويؤخَذَ مالى، ويُضْرَب ظهرى..

ثم قال:

وأخاف أن أقضى بغير علم..

وأقول بغير حِلْم..

* * *

وذات يوم، اشتد شوقه إلى لقاء الله..

وبينما كان عُوَّاده يدعون له بالشفاء من مرضه، كان هو يُلحُّ على الله قائلا:

«الله إنى أحب لقاءك، فأحِبَّ لقائى»..

وعن ثمانى وسبعين سنة مات فى العام التاسع والخمسين للهجرة..

وبين ساكنى البقيع الأبرار تبوَّأ جثمانه الوديع مكانًا مباركًا..

وبينما كان مشيعوه عائدين من جنازته، كانت

ألسنتهم ترتل الكثير من الأحاديث التى حفظها لهم عن رسولهم الكريم..

ولعل واحدًا من المسلمين الجدد كان يميل على صاحبه ويسأله:

- لماذا كُنِّى شيخنا الراحل بأبى هريرة..!!

فيجيبه صاحبه وهو بالأمر خبير:

- لقد كان اسمه فى الجاهلية «عبد شمس»، ولما أسلم سماه الرسول «عبد الرحمن».. ولقد كان عطوفًا على الحيوان، وكانت له هرة، يطعمها، ويحملها، وينظفها، ويؤويها.. وكانت تلازمه كظله..

وهكذا دُعى: أبا هريرة، رضى الله عنه وأرضاه..

البَرَاءُ بن مَالِك

اللّٰـهُ، وَالْجَـــنَّة

هو ثانى أَخَوَيْنِ عاشا فى الله، وأعطيا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدًا نما وأزهر مع الأيام.

أما أولهما فهو «أنس بن مالك» خادم رسول الله عليه السلام.

أخذته أمه «أم سُلَيم» إلى الرسول وعمره يوم ذاك عشر سنين وقالت:

«يارسول الله..

هذا أنس غلامك يخدمُك، فادع الله له»..

فقبَّله الرسول بين عينيه ودعا له دعوة ظَلّتْ تحدو عمره الطويل نحو الخير والبركة..

دعا له الرسول فقال:

«اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له، وأدخله الجنة»...

فعاش تسعًا وتسعين سنة، ورزق من البنين والحفَدة كثيرين، كما أعطاه الله فيما أعطاه من رزق، بستانًا رَحْبًا ممرِعًا، كان يحمل الفاكهة فى العام مرتين..!!

* * *

وثانى الأخوين، هو البَرَاء بن مالك»...

عاش حياته العظيمة المقدامة، وشعارُه:

«الله، والجنّة»..

ومن كان يراه، وهو يقاتل فى سبيل الله، كان يرى عجَبًا يفوق العَجَب..

فلم يكن البَراء حين يجاهد المشركين بسيفه ممن يبحثون عن النصر، وإن يكن النصر آنئذ أجلَّ غاية.. إنما كان يبحث عن الشهادة..

كانت كل أمانيه، أن يموت شهيدًا، ويقضى نحبه فوق أرض معركة مجيدة من معارك الحق والإسلام..

من أجل هذا، لم يتخلف عن مشهد ولا غزوة..

وذات يوم ذهب إخوانه يعودونه، فقرأ وجوههم ثم قال:

«لعلكم ترهبون أن أموت على فراشي..

«لا والله، لن يحرمنى ربى الشهادة»..!!

ولقد صدَّق الله ظنه فيه، فلم يمُت «البَراء» على فراشِه، بل مات شهيدًا فى معركة من أروع معارك الإسلام..!!

* * *

ولقد كانت بطولة «البَراء» يوم اليمامة خليقةً به.. خليقةً بالبطل الذى كان عمر بن الخطاب يُوصى ألّا يكون قائدًا أبدًا، لأن جَسارته وإقدامه، وبحثه عن الموت.. كل هذا يجعل قيادته لغيره من المقاتلين مخاطرة تشبه الهلاك..!!

وقف البَراء «يوم اليَمامة» وجيوش الإسلام تحت إمرة «خالد» تتهيأ للنزال، وقف يتلمظ مستبطئًا تلك اللحظات التى تمرُّ كأنها السنين، قبل أن يصدر القائد أمره بالزحف..

وعيناه الثاقبتان تتحركان فى سرعة ونفاذ فوق أرض المعركة كلها، كأنهما تبحثان عن أصلح مكان لمصرع البطل..!!

أجَلْ، فما كان يشغله فى دنياه كلها غير هذه الغاية..

حصادٌ كثير يتساقط من المشركين دعاة الظلام والباطل بحدِّ سيفه الماحق...

ثم ضربةٌ تُوَاتيه فى نهاية المعركة من يدٍ مشركة، يميل على أثرها جسده إلى الأرض، على حين تأخذ روحه طريقها إلى الملأ الأعلى فى عُرْس الشهداء، وأعْيَاد المباركين..!!

* * *

ونادى «خالد»: الله أكبر، فانطلقت الصفوف المرصوصة إلى مقاديرها، وانطلق معها عاشق الموت «البَراء بن مالك»..

وراح يُجَنْدِل أتباع الكذّاب مسيلمة بسيفه، وهم يتساقطون كأوراق الخريف تحت وميض بأسِه...

لم يكن جيش «مسيلمة» هزيلا، ولا قليلا... بل كان أخطر جيوش الردة جميعًا..

وكان بأعداده، وبِعتَاده، وباسْتماتة مقاتليه، خطرًا يفوق كل خَطر...

ولقد أجابوا على هجوم المسلمين بمقاومة تناهَت فى العُنف حتى كادوا يأخذون زمام المبادرة وتتحول مقاومتهم إلى هجوم..
هناك سَرَى فى صفوف المسلمين شيء من الجزع، وانطلق

زعماؤهم وخطباؤهم يلقون من فوق صهوات جيادهم كلمات التثبيت، ويذكرون بوعد الله..

وكان «البَراء بن مالك» جميل الصوت عالِيَه..

وناداه القائد «خالد» تكلم يا براء..

فصاح البَراء بكلمات تناهَت فى الجزالة، والدَّلاَلَة، والقوة.

تلك هى:

«يا أهل المدينة..

«لا مدينة لكم اليوم..

«إنما هو الله، والجنَّة»..

كلمات تدلُّ على روح قائلها وَتُنّبئ بخصاله.

أجَلْ..

إنما هو الله، والجنَّة..!!

وفى هذا الموطن، لا ينبغى أن تدور الخواطر حول شىء آخر..

حتى المدينة، عاصمة الإسلام، والبلد الذى خلفوا فيه ديارهم ونساءهم وأولادهم، لا ينبغى أن يفكروا فيها، لأنهم إذا هُزِمُوا

اليوم، فلن تكون هناك مدينة..

وسرت كلمات «البَراء» مثل.. مِثْلَ ماذا...؟

إن أى تشبيه سيكون ظلمًا لحقيقة أثَرها وتأثيرها..

فلنقُل: سرت كلماتُ «البَراء» وكفى..

ومضى وقت وجيز عادت بعده المعركة إلى نَهْجها الأوَّل..

المسلمون يتقدمون، يسبقهم نصر موزر..

والمشركون يتساقطون فى حضيض هزيمة مُنْكَرة..

و«البَراء» هناك مع إخوانه يسيرون براية محمد صلى الله عليه وسلم إلى موعدها العظيم..

واندفع المشركون إلى وراء هاربين، واحتموا بحديقة كبيرة دخلوها ولاذُوا بها...

وبردت المعركة فى دماء المسلمين، وبدا أن فى الإمكان تغيُّر مصيرها بهذه الحيلة التى لجأ إليها أتباع مسيلمة وجيشه..

وهنا علا «البَراء» ربوة عالية وصاح:

«يا معشر المسلمين..

«احملونى، وألْقَونى عليهم فى الحديقة»..

ألم أقُلْ لكم، إنه لا يبحث عن النصر بل عن الشهادة..!!

ولقد تصوَّر فى الخُطَّة خير ختام لحياته، وخير صورة لمماته..!!

فهو حين يُقْذَف به إلى الحديقة، يفتح للمسلمين بابها، وفى نفس الوقت تنوشه سيوف المشركين وتمزق جسده، وفى نفس الوقت كذلك تكون أبواب الجنة تأخذ زينتها وتتفتح لاستقبال عريس جديد، ومجيد..!!

* * *

ولم ينتظر «البَراء» أن يحمله قومه ويقذفوا به، فاعتلى هو الجدار، وألقى بنفسه داخل الحديقة وفتح الباب، واقتحمته جيوش الإسلام..

ولكنَّ حُلْم «البَراء» لم يتحقق، فلا سيوف المشركين اغْتَالَتْه، ولا هو لقى المصرع الذى كان يُمنى به نفسه..

وصدق أبو بكر رضى الله عنه:

«احرص على الموت..
توهَبْ لكَ الحياة»..!!

صحيح أن جسد البطل تلقَّى يومئذ من سيوف المشركين بضعًا وثمانين ضربة، أثخنته ببضع وثمانين جراحة؛ حتى لقد ظل بعد

المعركة شهرًا كاملا، يشرف «خالد بن الوليد» بنفسه على تمريضه..

ولكن كل هذا الذى أصابه كان دون غايته وما يتمنى..

بيد أنَّ ذلك لا يحمل «البراء» على اليأس.. فغدًا تجيء معركة، ومعركة، ومعركة..

ولقد تنبأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه مستجاب الدعوة.. فليس عليه إلا أن يدعو ربه دائمًا أن يرزقه الشهادة، ثم عليه ألا يعجَل، فلكل أجل كتاب..!!

ويبرأ «البراء» من جراحات يوم اليمامة..

وينطلق مع جيوش الإسلام التى ذهبت تُشَيِّع قُوى الظلام إلى مصارعها.. هناك حيث تقوم إمبراطوريتان خَرِعَتان فانيتان، الروم والفرس، تحتلان بجيوشهما الباغية بلاد الله، وتستعبدان عباده..

ويضرب «البراء» بسيفه، ومكان كل ضربة يقوم جدار شاهق فى بناء العالم الجديد الذى ينمو تحت راية الإسلام نموًّا سريعًا كالنهار والمشرق..

* * *

وفى إحدى حروب العراق لجأ الفرس فى قتالهم إلى كل وحشية دنيئة يستطيعونها..

فاستعملوا كلاليب مثبتة فى أطراف سلاسل مُحماةٍ بالنار، يلقونها من حصونهم، فتخطف مَنْ تنالُه من المسلمين الذين لا يستطيعون منها فكاكًا.

وكان «البراء» وأخوه العظيم «أنس بن مالك» قد وكل إليهما مع جماعة من المسلمين أمر واحد من تلك الحصون..

ولكن أحد هذه الكلاليب سقط فجأة، فتعلق بـ«أنس» ولم يستطيع أنس أن يمسَّ السلسلة ليخلص نفسه، إذ كانت تتوهج لهبًا ونارًا...

وأبصر «البَراء» المشهد.. فأسرع نحو أخيه الذى كانت السلسلة المحماة تصعد به على سطح جدار الحصن.. وقبض على السلسلة بيديه وراح يعالجها فى بأس شديد حتى قصمها وقطعها.. ونجا «أنس» وألْقَى البراء ومَنْ معه نظرة على كفيه فلم يجدوهما مكانهما.. !!

لقد ذهب كل ما فيهما من لَحم، وبقى هيكلهما العظمى مُسمَّرًا مُحترقًا.. !!

وقضى «البطل» فترة أخرى فى علاج بطىء حتى بَرِئ..

* * *

أما آن لعاشق الموت أن يبلغ غايته..؟؟

بلى - آن..!!

وها هى ذى موقعة «تُستُر» تجىء ليلاقى المسلمون فيها جيوش فارس، ولتكون لـ «البَراء» عيدًا أىَّ عيد..

* * *

احتشد أهل الأهواز، والفرس فى جيش كثيف ليناجزوا المسلمين..

وكتب أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» إلى «سعد بن أبى وقاص» بالكوفة ليرسل إلى «الأهواز» جيشًا..

وكتب إلى «أبى موسى الأشعرى» بالبصرة ليرسل إلى «الأهواز» جيشًا، قائلًا له فى رسالته:

«اجعل أمير الجند سهيل بن عدىّ..
ولْيَكُن معه البَراء بن مالك»...

والتقى القادمون من الكوفة بالقادمين من البصرة ليواجهوا

جيش الأهواز وجيش الفرس فى معركة ضارية..

كان الأخَوَان العظيمان بين الجنود المؤمنين.. أنَس بن مالك، والبراء بن مالك..

وبدأت الحرب بالمبارزة، فصرعَ البراءُ وحده مائة مُبارز من الفُرس..

ثم التحمت الجيوش، وراح القتلى يتساقطون من الفريقين كليهما فى كثرة كاثرة..

واقترب بعض الصحابة من البراء، والقتال دائر، ونادوه قائلين:

«أتذكُر يا بَراء قول الرسول عنك:
«رُبَّ أشْعَثَ أغْبَر ذى طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له، لَوْ أقسمَ عَلَى الله لأبَرَّه، منهم البَراء بن مالك..؟

«يا بَرَاء، أقسِمْ عَلى ربك؛ لِيَهزمهم وينصرنا»..

ورفع «البراء» ذراعيه إلى السماء ضارعًا داعيًا:

«اللهم امْنَحْنا أكْتَافَهم...

«اللهم اهزمهم...

«وانصرنا عليهم...

«وألْحِقْنى اليوم بنبيك»...

وألقى على أخيه «أنس» الذى كان يقاتل قريبًا منه.. نظرة طويلة، كأنه يُوَدِّعُه..

وانْقَذَف المسلمون فى استبسال لم تأْلفه الدنيا من سواهم..

ونُصِرُوا نصرًا مبينًا..

* * *

ووسط شهداء المعركة، كان هناك البَرَاء تعلو وجهه ابتسامة هانئة كضوء الفجر.. وتقبض يُمناهُ على حَثْيَةٍ من تُراب مُضمَّخةٍ بدمه الطهور..

وسيفُه مُمَدَّد إلى جواره.. قويًّا غير مثلوم، سويًّا غير مَكلوم..

لقد بلغ المسافر داره..

وأنهى مع إخوانه الشهداء رحلة عُمْر جليل وعظيم، ونُودُوا:

﴿أنْ تِلكُم الجنَّة، أُورِثْتُمُوها بما كنتم تعملون﴾..

عُـتبةُ بن غـزوان

غدًا، ترون الأمراءَ من بعدي

مِن بين المسلمين السابقين، والمهاجرين الأولين إلى الحبشة، فالمدينة...

ومن بين الرُّماة الأفذاذ الذين أبلَوْا فى سبيل الله بلاءً حسنًا، هذا الرجل الفارع الطول، المشرق الوجه، المُخْبِت القلب «عُتبةُ بن غزوان»..

* * *

كان سابعَ سبعة سبقوا إلى الإسلام، وبسطوا أيمانهم إلى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، مبايعين ومُتَحَدِّين قريشًا بكل ما معها من بأس وقدرة على الانتقام...

وفى الأيام الأولى للدعوة.. أيام العُسْرَة والهوْل، صمد «عتبة ابن غزوان» مع إخوانه ذلك الصمود الجليل الذى صار فيها بعد زادًا للضمير الإنسانى يغتذى به وينمو على مرّ الأزمان..

ولما أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، خرج عتبة مع المهاجرين..

بيد أن شوقه إلى النبى صلى الله عليه وسلم لم يدعه يستقر هناك، فسرعان ما طوى البرَّ والبحر عائدًا إلى مكة؛ حيثُ لبِثَ فيها بجوار الرسول حتى جاء ميقات الهجرة إلى المدينة؛ فهاجر عتبة مع المسلمين...

ومنذ بدأت قريش تحرشاتها فَحُروبها، وعتبة حاملٌ رِماحه ونِبَاله، يرمى بها فى أستاذية خارقة، ويسهم مع إخوانه المؤمنين فى هدم العالم القديم بكل أوثانه وبهتانه..

ولم يضع سلاحه يوم رحل عنهم الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، بل ظل يضرب فى الأرض، وكان له مع جيوش الفرس جهاد عظيم..

* * *

أرسله أمير المؤمنين «عمر» إلى الأُبُلّة ليفتحها، وليطهر أرضها

من الفرس الذين كانوا يتخذونها نقطة وثوب خطرة على قوات الإسلام الزاحفة عَبْر بلاد الامبراطورية الفارسية، تستخلص منها بلاد الله وعباده..

وقال له «عمر» وهو يُوَدِّعه وجيشه:

«انطلق أنت ومن معك، حتى تأتوا أقصى بلاد العرب، وأدنى بلاد العجم..

«وسرْ عَلَى بركة الله وعَونِه..

«ادْعُ إلى الله من أجابك..

«ومن أَبَى، فالجزية..

«وإلاّ فالسيف فى غير هوادة..

«كابِدِ العدو، واتق الله ربك»..

* * *

ومضى «عُتْبة» على رأس جيشه الذى لم يكن كبيرًا، حتى قدم الأُبُلَّة..

وكان الفرس يحشدون بها جيشًا من أقوى جيوشهم..

ونظم «عتبة» قواته، ووقف فى مقدمتها، حاملا رمْحَهُ بيده التى

لم يعرف الناس لها زلة منذ عرفت الرَّمى..!!

وصاح فى جنده:

«الله أكبر، صدق وَعْده»..

وكأنه كان يقرأ غيبًا قريبًا، فما هى إلا جولات ميمونة استسلمت بعدها «الأُبلة» وطهرت أرضها من جنود الفرس، وتحرر أهلها من طغيان طالما أصلاهم سعيرًا.. وصدق الله العظيم وعده.. !!

* * *

اختطَّ «عتبةَ» مكان الأبلة مدينة البَصرة، وعَمَّرها وبنى مسجدها العظيم..

وأراد أن يغادر البلاد عائدًا إلى المدينة، هاربًا من الإمارة، لكن أمير المؤمنين أمره بالبقاء..

ولبث «عتبة» مكانه يُصَلى بالناس، ويفقههم فى دينهم، ويحكم بينهم بالعدل، ويضرب لهم - أروع المثل - فى الزهد والورع والبساطة..

ووقف يحارب الترف والسَّرَف بكل قواه حتى ضَجِرَه الذين كانوا تستهويهم المناعم والشهوات..

هنالك وقف «عتبة» فيهم خطيبًا فقال:

«والله، لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابعَ سبعة وما لنا طعامٌ إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقُنَا...

«ولقد رُزِقتُ يومًا بُرْدَة، فشققتها نصفين، أعطيت نصفها سعد بن مالك، ولبستُ نصفها الآخر»..

* * *

كان «عتبة» يخاف الدنيا على دينه أشد الخوف، وكان يخافها على المسلمين، فراح يحملهم على القناعة والشظف.

وحاول الكثيرون أن يحوِّلُوه عن نهجه، ويثيروا فى نفسه الشعور بالإمارة، وبما للإمارة من حق، لا سيما فى تلك البلاد التى لم تتعود من قبل أمراء من هذا الطراز المتقشف الزاهد، والتى تعوَّد أهلها احترام المظاهر المتعالية المزْهُوَّة.. فكان «عتبة» يجيبهم قائلا:

«إنى أعوذ بالله أن أكون فى دنياكم عظيمًا، وعند الله صغيرًا».. !

ولما رأى الضيق على وجوه الناس بسبب صرامته فى حملهم

على الجادَّة والقناعة قال لهم:

«غدًا تَرَوْن الأمراء من بعدى»..

وجاء موسم الحج، فاستخلف على البصرة أحد إخوانه وخرج حاجًّا. ولما قضى حجه، سافر إلى المدينة، وهناك سأل أمير المؤمنين أن يعفيه من الإمارة..

لكن «عمر لم يكن يُفَرِّط فى هذا الطراز الجليل من الزاهدين الهاربين مما يسيل له لعاب البشر جميعًا.

وكان يقول لهم:

«تضعون أماناتِكم فوق عنقى..

ثم تتركونى وحدى..؟؟

لا والله لا أعفيكم أبدًا»..!!

وهكذا قال لـ «عتبة بن غزوان»..

ولما لم يكن فى وسع «عتبة» إلا الطاعة، فقد استقبل راحلته ليركبها راجعًا إلى البصرة.

لكنه قبل أن يعلو ظهرها، استقبل القبلة، ورفع كفيه الضارعتين إلى السماء، ودعا ربه - عز وجل - ألا يرُدَّه إلى

البصرة، ولا إلى الإمارة أبدًا...

واستجيب دعاؤه...

فبينما هو فى طريقه إلى ولايته أدركه الموت..

وفاضت روحه إلى بارئها، مغتبطة بما بذلت وأعطت...

وبما زهدت وعَفّت..

وبما أتم الله عليها من نعمة..

وبما هَيَّأ لها من ثواب...

ثابت بن قيس
خطيب رسول الله

كان «حسّان» شاعر رسول الله والإسلام...

وكان «ثابت» خطيب رسول الله والإسلام...

كانت الكلمات تخرج من فمه قوية، صادعة، جامعة، رائعة..

وفي عام الوفود، وَفَدَ على المدينة وفدُ «بني تميم» وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«جئنا نفاخرك، فَأْذن لشاعرنا وخطيبنا»..

فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال لهم:

«قد أَذِنْتُ لخطيبكم، فليقل»...

وقام خطيبهم «عُطارد بن حاجب» ووقف يزهو بمفاخر قومه..

ولما آذن بانتهاء، قال النبى صلى الله عليه وسلم لثابت ابن قيس: قم فأجِبْه...

ونهض «ثابت» فقال:

«الحمد لله، الذى السماواتُ والأرض خلْقُهُ، قضى فيهن أمره، ووسع كُرسِيُّه عِلمه، ولم يك شىء قط إلا من فضله...

«ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة، واصطفى من خير خلقه رسولا... أكرمهم نسبًا، وأصدقهم حديثًا، وأفضلهم حَسَبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين...

«ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن به المهاجرون من قومه وذوى رَحِمِهِ.. أكرم الناس أحسابًا، وخيرهم فعالا...

«ثم كنا - نحن الأنصار - أول الخلق إجابة..

«فنحن أنصار الله، ووزراء رسوله»...

* * *

شهد «ثابت» مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة «أُحد» والمشاهد بعدها.

وكانت فِدَائيته من طراز عجيب.. جد عجيب..!!

فى حروب الرِّدَّة، كان فى الطليعة دائمًا، يحمل راية الأنصار، ويضرب بسيف لا يكْبُو، ولا يَنْبو...

وفى موقعة اليمامة، التى سبق الحديث عنها أكثر من مرة، رأى «ثابت» وَقْعَ الهجوم الخاطف الذى شَنَّه جيش «مسيلمة الكذاب» على المسلمين أوَّل المعركة، فصاح بصوته النذير الجهير:

«والله، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم»...

ثم ذهب غير بعيد، وعاد وقد تحنط، ولبس أكفانه، وصاح مرة أخرى:

«اللهم إنى أبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء...

- يعنى جيش مسيلمة...

«وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء...

- يعنى تراخى المسلمين فى القتال»...

وانضم إليه «سالم» مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحمل راية المهاجرين...

وحفر الاثنان لنفسيهما حفرة عميقة ثم نزلا فيها قائمين، وأهالا الرمال عليهما حتى غَطَّت وسط كل منهما...

وهكذا وقفا... طَوْدَين شامخين، نصف كل منهما غائص فى الرمال مُثْبَت فى أعماق الحفرة.. فى حين نصفهما الأعلى - صدرهما وجبهتهما وذراعاهما - يستقبلان جيوش الوثنية والكذب..

وراحا يضربان بسيفيهما كل من يقترب منهما من جيش مُسيلمة حتى استشهدا فى مكانهما، ومالت شمسُ كل منهما للغروب.. !!

وكان مشهدهما - رضى الله عنهما - هذا أعظم صيحة أسهمت فى ردِّ المسلمين إلى مواقعهم، حيث جعلوا من جيش «مُسيلمة الكذاب» ترابًا تطؤه الأقدام.. !!

* * *

و«ثابت بن قيس»... هذا الذى تفوَّق خطيبًا، وتفوَّق محاربًا

كان يحمل نفسًا أوَّابة، وقلبًا خاشعًا مُخْبِتًا، وكان من أكثر المسلمين وَجَلاً من الله، وحياء منه...

* * *

لما نزلت الآية الكريمة:

﴿إن الله لا يحبُّ كل مختال فخور﴾ ..

أغلق «ثابت» باب داره، وجلس يبكى... وطال مُكْثُه على هذه الحال، حتى نمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره، فدعاه وسأله.

فقال ثابت:

«يا رسول الله، إنى أُحب الثوب الجميل،والنَّعْلَ الجميل، وقد خشيت أن أكون بهذا من المختالين»...

فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يضحك راضيًا:

«إنك لست منهم...

بل تعيش بخير...

وتموت بخير...

وتدخل الجنة»...

ولما نزل قول الله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي.ولا تَجْهَرُوا لهُ بالقول كجَهْرِ بعضِكم لبعض، أنْ تَحْبَط أعمالُكم وأنتم لا تشعرون﴾..

أغلق «ثابت» عليه داره، وطفِق يبكي..

وافتقده الرسول فسأل عنه، ثم أرسل من يدعوه..

وجاء «ثابت»..

وسأله الرسول عن سبب غيابه، فأجابه:

«إني امرؤٌ جهير الصوت..

وقد كنتُ أرفع صوتي فوقَ صوتك يا رسول الله..

وإذن فقد حَبِط عملي، وأنا من أهل النار»..!!

وأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام:

«إنك لست منهم..

بل تعيش حميدًا..

وتقتل شهيدًا..

ويدخلك الله الجنة»..

* * *

بقى فى قصة «ثابت» واقعة، قد لا يستريح إليها أولئك الذين حصروا تفكيرهم وشعورهم ورُؤاهُم داخل عالمهم المادىّ الضيِّق الذى يلمسونه، أو يبصرونه، أو يَشَمُّونه..!!

ومع هذا، فالواقعة صحيحة، وتفسيرها مُبين ومُيَسَّر لكل مَنْ يستخدم مع البَصر، البصيرة..

بعد أن استشهد «ثابت» فى المعركة، مَرَّ به واحد من المسلمين الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام ورأى على جثمان «ثابت» درعه الثمينة، فظن أن من حقه أن يأخذها لنفسه، فأخذها..

ولْنَدع راوى الواقعة يرويها بنفسه:

«... وبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه، فقال له:

إنى أُوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حُلْم فتضيعه..

«إنى لما استُشهدتُ بالأمس، مَرَّ بى رجل من المسلمين، فأخذ درعى..

«وإن منزله فى أقصى الناس، وفرسُه يَسْتَنُّ فى طولِه، أى - فى لجامِه وشكيمَته.

«وقد كفَأ على الدرع بُرْمة، وفوق البرمة رَحْل...

«فأتِ خالدًا، فمره أن يبعث فيأخذها..

«فإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله أبى بكر، فقل له: إن علىَّ من الدين كذا كذا..

فلْيَقُم بسداده...

«فلما استيقظ الرجل من نومه، أتى خالد بن الوليد، فقصَّ عليه رُؤياه..

«فأرسل خالد من يأتى بالدِّرع، فوجدها كما وصف ثابت تمامًا..

«ولما رجع المسلمون إلى المدينة، قصَّ المسلم على الخليفة الرؤيا، فأنجز وَصِيَّةَ ثابت..

«وليس فى الإسلام وصية ميِّت أُنجزت بعد موته على هذا النحو، سوى وصية ثابت بن قيس»...

* * *

حقًا إن الإنسان لَسِرٌّ كبير..

﴿ولَا تَحْسَبَنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا... بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزقُون﴾..

أُسَيْد بن حُضَيْر
بَطَلُ يومِ السَّقِيفَة

ورِث المكارم، كابرًا عن كابر..

فأبوه «حُضير الكتائب» كان زعيم الأوْس، وكان واحدًا من كبار أشراف العرب فى الجاهلية، ومقاتليهم الأشِدَّاء..

وفيه يقول الشاعر:

لَو انَّ المَنايا، حِدْنَ عن ذى مهابَةٍ ... لَهِبْنَ «حُضَيْرًا» يوم غلَّق واقما
يطوف به، حتى إذا الليل جَنَّه ... تبوَّأ منهُ مَقعدًا مُتناغما

وورث «أُسَيْد» عن أبيه مكانته، وشجاعته، وجوده، فكان قبل أن يسلم، واحدًا من زعماء المدينة وأشراف العرب، ورُماتها الأفذاذ..

فلما اصْطفاه الإسلام، وهدِىَ إلى صراط العزيز الحميد، تناهى عِزّه، وتسامَى شَرفُه، يوم أخذ مكانه، واحدًا من أنصارِ الله وأنصار رسولِه، ومن السَّابقين إلى الإسلام العظيم...

* * *

ولقد كان إسلامه يوم أسلم سريعًا، وحاسمًا، وشريفًا...

فعندما أرسل الرسول عليه السلام «مصعب بن عمير» إلى المدينة ليعلِّم ويُفقه المسلمين من الأنصار الذين بايعوا النبى على الإسلام بيعة العقَبة الأولى، ولِيدْعُوَ غيرهم إلى دين الله.

يومئذ، جلس أُسَيد بن حُضَيْر، وسعد بن معاذ، وكانا زعيمى قومهما، يتشاوَران فى أمر هذا الغريب الذى جاء من مكة يُسفِّه دينهما، ويدعو إلى دين جديد لا يعرفونه...

وقال سعد لأُسَيْد: «انطلق إلى هذا الرجل، فازْجُرْه»..

وحمل «أُسَيْد» حربته، وأغذَّ السَّيْر إلى حيث كان «مصعب» فى ضيافة «أسعد بن زُرارة» من زعماء المدينة الذين سبقوا إلى الإسلام.

وعند مجلس «مصعب» و «أسعد بن زُرارة» رأى «أُسَيد» جمهرة من الناس تصغى فى اهتمام للكلمات الرشيدة التى

يدعوهم بها إلى الله، مصعب بن عمير..

وفاجأهم «أُسيد» بغضبه وثورته..

وقال له مصعب:

«هل لك فى أن تجلس فتسمع.. فإن رضيتَ أَمْرَنَا قَبِلْتَه، وإن كرهته، كَفَفْنَا عنك ما تكره».. ؟؟

* * *

كان «أسيد» رجلا.. وكان مستنير العقل ذكىَّ القلب حتى لقّبه أهل المدينة بـ«الكامل».. وهو لَقَبٌ كان يحمله أبوه من قبله..

فلما رأى «مُصعبًا» يحتكم به إلى المنطق والعقل، غرس حربته فى الأرض، وقال لمصعب:

- لقد أنْصَفْت، هاتِ ما عندك..

وراح مصعب يقرأ عليه من القرآن، ويُفسِّر له دعوة الدين الجديد. الدين الحق الذى أُمر محمد عليه الصلاة والسلام بتبليغه، ونشر رايته.

يقول الذين حضروا هذا المجلس:

«والله، لقد عرفنا فى وجه «أُسيد» الإسلام قبل أن

يتكلم... عرفناه فى إشراقه وتَسَهُّلِه»... !!

* * *

لم يكد «مُصعب» ينتهى من حديثه حتى صاح أُسيد مبهورًا:

«ما أحسن هذا الكلام وأجمله..

«كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين». ؟

قال له مُصعب:

«تُطَهِّرُ بدنَك، وثوبَك، وتشهد شهادة الحق، ثم تُصلى»...

إن شخصية «أُسيد» شخصية مستقيمة وقوية وناصعة، وهى إذ تعرف طريقها، لا تتردد لحظة أمام إرادتها الحازمة...

ومن ثَمَّ، قام «أسيد» فى غير إرجاء ولا إبطاء ليستقبل الدين الذى انفتح له قلبه، وأشرقت به روحه. فاغتسل وتطهَّر، ثم سجد لله رب العالمين، مُعْلِنًا إسلامه، مُودِّعًا أيام وثَنيته، وجاهِلِيَّته.. !!

كان على «أسيد» أن يعود لسعد بن معاذ، لينقل إليه أخبار المهمة التى كلَّفه بها.. مهمة زَجْر «مُصعب بن عمير» وإخراجه..

وعاد إلى سعد...

وما كاد يقترب من مجلسه، حتى قال سعد لمن حوله:

«أُقسم، لقد جاءكم «أُسَيْد» بغير الوجه الذي ذهب به».. !!!

أجَلْ..

لقد ذهب بوجه طافح بالمرارة، والغضب، والتحدِّى..

وعاد بوجه تغشاه السكينة والرحمة والنور.. !!

* * *

وقرر «أسيد» أن يستخدم ذكاءه قليلا..

إنه يعرف أن «سعد بن معاذ» مثله تمامًا فى صفاء جوهره، ومضاء عزمه، وسلامة تفكيره وتقديره...

ويعلم أنه ليس بينه وبين الإسلام سوى أن يسمع ما سمع هو من كلام الله، الذى يحسن ترتيلَه وتفسيرَه سفير الرسول إليهم «مصعب بن عمير»..

لكنه لو قال لسعد: إنى أسلمت، فَقُم وأَسْلِم، لكانت مُجابَهةً غير مأمونة العاقبة..

إذن فعليه أن يُثير حَمِيَّة «سعد» بطريقة تدفعه إلى مجلس

مُصعب حتى يسمع ويرى..

فكيف السبيل لهذا..؟

* * *

كان «مُصعب» كما ذكرنا من قبل ينزل ضيفًا على أسعد بن زرارة..

وأسعد بن زُرارة هو ابن خالة سعد بن معاذ..

هنالك قال أُسيد لسعد:

«لقد حُدِّثْتُ أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرَارة ليقتلوه، وهم يعلمون أنه ابن خالتك»..

وقام سعد، تقوده الحميَّة والغضب، وأخذ الحربة، وسار مسرعًا إلى حيث أسعد، ومصعب، ومن معهما من المسلمين..

ولما اقترب من المجلس لم يجد ضوضاءً ولا لَغطًا، وإنما هى السكينة تغشى جماعة يتوسطهم مصعب بن عمير، يتلو آيات الله فى خشوع، وهم يصغون إليه فى اهتمام عظيم..

هنالك أدرك الحيلة التى نسجها له «أُسيد» لكى يحمله على السعى إلى هذا المجلس، وإلقاء السمع لما يقوله سفير الإسلام «مصعب بن عمير».

ولقد صدقت فراسة «أُسيد» فى صاحبه، فما كاد سعد يسمع حتى شرح الله صدره للإسلام، وأخذ مكانه فى سرعة الضوء بين المؤمنين السابقين..!!

* * *

كان «أُسيد» يحمل فى قلبه وفى عقله إيمانًا وثيقًا ومُضيئًا..

وكان إيمانه يفىء عليه من الأناة والحلم وسلامة التقدير ما يجعله أهلاً للثقة دَوْمًا..

فى غزوة «بنى المُصْطَلِق» تحركت مغايظ «عبد الله بن أُبَىّ» فقال لمن حوله من أهل المدينة:

«لقد أَحْلَلْتُمُوهُم بلادكم، وقاسمْتموهم أموالكم..

«أما و الله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتَحوَّلُوا إلى غير دياركم..

«أما والله لئن رَجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأذلّ»...

سمع الصحابى الجليل «زيد بن أرقم» هذه الكلمات، بل هذه السموم المنافقة المسعورة، فكان حقًّا عليه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم...

وتألم رسول الله عليه الصلاة والسلام كثيرًا، وقابله أُسيد فقال له النبى عليه السلام:

- أو مابلغك ماقال صاحبكم..؟؟

قال أُسَيد:

- وأىُّ صاحب يا رسول الله.. ؟؟

قال الرسول:

- عبدالله بن أُبىّ!!

قال أسيد:

- وماذا قال..؟؟

قال الرسول:

- زعم أنه رجع إلى المدينة لَيخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل.

قال أسيد:

- فأنت والله، يارسول الله، تخرجه منها إن شاء الله.. هو والله الذليل، وأنت العزيز...

ثم قال أسيد:

«يا رسول الله، ارفُقْ به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن

قومه لَينظِمون له الخرز لِيُتوجُوه على المدينة مَلِكًا،
فهو يرى أن الإسلام قد سَلَبَهُ مُلْكًا»...

بهذا التفكير الهادئ العميق المتزن الواضح، كان أسيد دائمًا يعالج القضايا ببديهة حاضرة وثاقبة...

وفى يوم السقيفة، إثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعلن فريق من الأنصار، على رأسهم «سعد بن عبادة» أحقيتهم بالخلافة، وطال الحوار، واحتدمت المناقشة، كان موقف أُسَيد – وهو كما عرفنا زعيم أنصارى كبير – كان موقفه فعالاً فى حسم الموقف، وكانت كلماته كفلق الصبح فى تحديد الاتجاه..

وقف «أسيد» فقال مخاطبًا فريق الأنصار من قومه:

«تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين...

«فخليفته إذن ينبغى أن يكون من المهاجرين..

«ولقد كنا أنصار رسول الله..

«وعلينا اليوم أن نكون أنصار خليفته»..

وكانت كلماته بَرْدًا، وسلامًا...

* * *

ولقد عاش «أُسَيد بن حُضَيْر» رضى الله عنه عابدًا، قانتًا، باذلًا روحه وماله فى سبيل الخير، جاعلًا وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للأنصار نصب عينيه:

«اصبروا.. حتى تلقَوْنى على الحوْضِ»...

ولقد كان لدينه وخُلُقه موضع تكريم الصِّديق وحُبِّه، كذلك كانت له نفس المكانة والمنزلة فى قلب أمير المؤمنين عمر، وفى أفئدة الصحابة جميعًا.

وكان الاستماع لصوته وهو يرتل القرآن إحْدَى المغانم الكبرى التى يحرص الأصحاب عليها..

ذلك الصوت الخاشع الباهر المنير الذى أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن الملائكة دَنَتْ من صاحبه ذات ليلة لسماعه..

وفى شهر شعبان عام عشرين للهجرة، مات أسيد..

وأبى أمير المؤمنين عمر إلا أن يحمل نعشه فوق كتِفهِ..

وتحت ثرى البقيع وَارَى الأصحاب جثمان مؤمن عظيم..

وعادوا إلى المدينة وهم يستذكرون مناقبه ويرددون قول الرسول الكريم عنه:

«نِعْمَ الرجل.. أسَيْد بن حُضيْر»..

عَبْدالرّحمٰن بن عَوْف
مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا مُحَمَّد ؟!

ذات يوم، والمدينة ساكنة هادئة، أخذ يقترب من مشارفها نَقْعٌ كثيف، راح يتعالى ويتراكم حتى كاد يغطى الأفق.

ودفعت الريح هذه الأمواج من الغُبار الأصفر المتصاعد من رمال الصحراء الناعمة، فاندفعت تقترب من أبواب المدينة، وتهبُّ هبوبًا قويًّا على مسالكها.

وحسبها الناس عاصفة تكنس الرمال وتذروها، لكنهم سرعان ما سمعوا وراء ستار الغبار ضجة تنبئ عن قافلة كبيرة مديدة.

ولم يمض غير وقت وجيز، حتى كانت سْبعمائة راحلة مُوقَرَة الأحمال تزحم شوارع المدينة وترجُّها رجًّا، ونادى الناس بعضهم

بعضًا ليروا مشهدها الحافل، وليستبشروا ويفرحوا بما تحمله من خير ورزق...

* * *

وسألت «أم المؤمنين عائشة» رضى الله عنها، وقد ترامت إلى سمعها أصداء القافلة الزاحفة..

سألت: ما هذا الذى يحدث فى المدينة...؟؟

وأُجِيبَت: إنها قافلة لعبد الرحمٰن بن عوف جاءت من الشام تحملُ تجارة له...

قالت أم المؤمنين:

- قافلة تحدث كل هذه الرَّجَّة..؟!

- أجل، يا أم المؤمنين... إنها سبعمائة راحلة..!!

وهزَّت «أم المؤمنين» رأسها، وأرسلت نظراتها الثاقبة بعيدًا، كأنها تبحث عن ذكرى مشهد رأته، أو حديث سمعته...

ثم قالت:

«أما إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: رأيت عبد الرحمٰن بن عوف يدخل الجنة حَبْوا»..

عبد الرحمٰن بن عوف يدخل الجنة حَبْوا..؟

ولماذا لا يدخلها وثبًا وهَرْوَلة مع السابقين من أصحاب الرسول..؟

ونقل بعض أصحابه مقالة «عائشة» إليه، فتذكَّر أنه سمع من النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحديث أكثر من مرة، وبأكثر من صيغة.

وقبل أن تُفَضَّ مغاليق الأحمال من تجارته، حثَّ خُطاه إلى بيت «عائشة» وقال لها: لقد ذكَّرتِنى بحديث لم أنْسَه...

ثم قال:

«أما إنى أشهدك أنَّ هذه القافلة بأحمالها، وأقتابها، وأحْلاسِها، فى سبيل الله عز وجل»...

ووزعت حُمُولة سبعمائة راحلة على أهل المدينة وما حولها فى مهرجانِ برٍّ عظيم..!!

هذه الواقعة وحدها، تمثل الصورة الكاملة لحياة صاحب رسول الله «عبد الرحمن بن عوف».

فهو التاجر الناجح، أكثر ما يكون النجاح وأوفاه...

وهو الثريُّ أكثر ما يكون الثراء وَفْرَة وإفراطًا...

وهو المؤمن الأريب،الذى يأبى أن تذهب حظوظه من الدنيا بحظوظه من الدين، ويرفض أن يتخلف به ثراؤه عن قافلة الإيمان ومثوبة الجنة... فهو - رضى الله عنه - يجود بثروته فى سخاء وعطاء وغبطة ضمير..!!

* * *

متي، وكيف دخل هذا العظيم الإسلام..؟

لقد أسلم فى وقت مبكر جدًّا..

بل أسلم فى الساعات الأولى للدعوة، وقبل أن يدخلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ويتخذها مقرًّا لالْتِقائه بأصحابه المؤمنين..

فهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام..

عرضَ عليه «أبوبكر» الإسلام هو و «عثمان بن عفان» ، و «الزبير بن العوام»، و «طلحة بن عبيـد الله»، و «سعد بن أبى وقـاص»، فما غُمَّ عليهم الأمـر ولا أبطأ بهم الشـك، بـل سـارعوا مـع «الصِّديق» إلى رسـول الله يُبَـايعـونـه ويحملون لواءه.

ومنذ أسلم إلى أن لقى ربه فى الخامسة والسبعين من عمره،

وهو نموذج باهر للمؤمن العظيم، مما جعل النبى صلى الله عليه وسلم يضعه مع العشرة الذين بشّرهم بالجنة.. وجعل «عمر» رضى الله عنه يضعه مع أصحاب الشورى الستة الذين جعل الخلافة فيهم من بعده قائلا: «لقد توفى رسول الله وهو عنهم راضٍ».

وفَوْرَ إسلامْ «عبد الرحمنْ» حَمَل حظه المناسب، من اضطهاد قريش وتحدِّياتها.

وحين أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة هاجر «ابن عوف» ثم عاد إلى مكة، ثم هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ثم هاجر إلى المدينة.. وشهد بدراً، وأُحداً، والمشاهد كلها.

* * *

وكان محظوظاً فى التجارة إلى حد أثارَ عجبه ودهَشه فقال:

«لقد رأيتنى، لو رَفَعْتُ حجراً، لوجدت تحته فضة وذهباً»... !!

ولم تكن التجارة عند «عبد الرحمنْ بن عوف» رضى الله عنه شَرَهاً ولا احتكاراً..

بل لم تكن حرصاً على جمع المال وشَغَفاً بالثراء..

كلا..

إنما كانت عملاً، وواجباً يزيدهما النجاح قُرْباً من النفس، ومزيداً من السعي...

وكان «ابن عوف» يحمل طبيعة جيَّاشة، تجد راحتها فى العمل الشريف حيث يكون..

فهو إذا لم يكن فى المسجد يصلى، ولا فى الغزو يُجاهد فهو فى تجارته التى نَمَت نُموًّا هائلاً، حتى أخذت قوافله تَفِدُ على المدينة من مصر، ومن الشام، محملة بكل ما تحتاج إليه جزيرة العرب من كساء وطعام..

ويدلنا على طبيعته الجياشَة هذه، مسلكه غداة هجرة المسلمين إلى المدينة..

لقد جرى نهجُ الرسول يومئذ على أن يُؤاخي بين كل اثنين من أصحابه، أحدهما مهاجر من مكة، والآخر أنْصارى من المدينة.

وكانت هذه المؤاخاة تتم على نَسق يبهر الألباب، فالأنصاري من أهل المدينة يقاسم أخاه المهاجر كل ما يملك.. حتى فراشه،

فإذا كان متزوجاً باثنين، طلّق إحداهما، ليتزوجها أخوه..!!

ويومئذ آخى الرسول الكريم بين عبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن الربيع..

ولْنُصْغ للصحابي الجليل «أنَس بن مالك» رضى الله عنه يروي لنا ما حدث:

«... وقال سعد لعبد الرحمٰن: أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالى فخذه!!

«وتحتى امرأتان، فانظر أيتهما أعجب لك حتى أُطَلِّقها، وتتزوجها..!

فقال له عبد الرحمٰن بن عوف:

«بارَك الله لك فى أهلك ومالك...

دُلُّونى على السُّوق..

«وخرج إلى السوق، فاشترى... وباع... وربح»... !!

وهكذا سارت حياته فى المدينة، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته.. أداءٌ كامل لحق الدين، وعمل الدنيا.. وتجارة رابحة ناجحة، لو رفع صاحبها - على حَدِّ قوله - حجرًا من مكانه لوجد تحته ذهبًا وفضة..!!

ومما جعل تجارته ناجحة مباركة، تَحريه الحلال ، ونَأْيُهُ الشديد عن الحرام، بل عن الشُّبُهات..

كذلك مما زادها نجاحًا وبركة أنها لم تكن لعبد الرحمن وحده... بل كان لله فيها نصيب أوفى، يَصِلُ به أهله، وإخوانه، ويجهِّز به جيوش الإسلام...

وإذا كانت التجارة والثروات، إنما تُحصى بأعداد رصيدها وأرباحها فإن ثروة عبد الرحمن بن عوف إنما تُعْرَف مقاديرها وأعدادها بما كان يُنْفق منها فى سبيل الله رب العالمين..!!

لقد سمع رسول الله يقول له يومًا:

«يا بن عَوْف إنك من الأغنياء..
«وإنك ستدخُل الجنة حَبْوًا..
«فَأقْرِضِ الله يُطْلق لك قَدَمَيك»..

ومنذ سمع هذا النُّصْحَ من رسول الله ، وهو يُقرض ربه قرضًا حَسَنًا، فيضاعفه الله له أضعافًا كثيرة.

باع فى يوم أرضًا بأربعين ألف دينار، ثم فَرَّقها جميعًا فى أهله من بنى زُهْرة، وعلى أُمَّهات المؤمنين، وفقراء المسلمين.

وقدَّمَ يومًا لجيوش الإسلام خمسمائة فرس.. ويومًا آخر ألفًا

وخمسمائة راحلة.

وعند موته، أوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله، وأوصى لكل من بقى مِمَّنْ شهدوا بدرًا بأربعمائة دينار، حتى إن عثمان ابن عفان رضى الله عنه، أخذ نصيبه من الوصية برغم ثرائه وقال: «إن مال عبد الرحمن حلالٌ صَفْوٌ، وإن الطُّعْمة منه عافية وبركة».

* * *

كان «ابن عوف» سَيِّدَ ماله ولم يكن عَبْدَه..

وآية ذلك أنه لم يكن يشقى بجمعه ولا باكتنازه..

بل هو يجمعه هَوْنًا، ومن حلال.. ثم لايَنْعَم به وحده... بل يَنْعَم به معه أهله ورَحِمُه وإخوانه ومجتمعه كله.

ولقد بلغ من سَعَةِ عطائه وعَوْنه أنه كان يقال:

«أهل المدينة جميعًا شركاء لابن عوف فى ماله.
«ثُلُث يُقْرِضهم..
«وثلثٌ يقضى عنهم ديونهم..
«وثلث يَصِلهم ويُعطِيهم..»!!

ولم يكن ثراؤه هذا ليبعث الارتياح لديه والغبطة فى نفسه، لو

لم يُمكِّنه من مُناصرة دينه، ومعاونة إخوانه.

أما بعد هذا، فقد كان دائم الوجل من هذا الثراء..

جيء له يومًا بطعام الإفطار، وكان صائمًا..

فلما وقعت عليه عيناه فقد شهيته وبكى وقال:

«استشهد «مصعب بن عمير» وهو خير منى، فكُفِّن فى بردة إن غطّت رأسه، بدت رجلاه، وإن غطّت رجلاه بدا رأسُه.

«واستُشهد «حمزة» وهو خير منى، فلم يوجد له ما يُكَفَّن فيه إلا بردة.

«ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسط، وأُعطينا منها ما أُعطينا وإنى لأخشى أن نكون قد عجِّلَتْ لنا حسناتُنا»!!

واجتمع يومًا بعض أصحابه على طعام عنده.

وما كاد الطعام يوضع أمامهم حتى بكى، وسألوه:

- ما يبكيك يا أبا محمد..؟

قال:

«لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما شبع هو وأهل بيته من خبز الشعير..

«ماأرانا أُخِّرْنَا لما هو خير لنا»..!!

كذلك، لم يبتعث ثراؤه العريض ذرة واحدة من الصَّلَف والكبر فى نفسه..

حتى لقد قيل عنه: إنه لو رآه غريب لا يعرفه وهو جالس مع خدَمه، ما استطاع أن يميزه من بينهم.!!

لكن إذا كان هذا الغريب يعرف طَرَفًا من جهاد «ابن عوف» وبلائه، فيعرف مثلًا أنه أُصيب يوم «أُحُد» بعشرين جراحة، وأن إحدى هذه الإصابات تركت عَرَجًا دائما فى إحدى ساقيه.. كما سقطت يوم «أُحُد» بعض ثناياه، فتركَت هَتَمًا واضحًا فى نُطْقِه وحديثه..

عندئذ لا غير، يستطيع هذا الغريب أن يعرف أن هذا الرجل الفارع القامة، المضيء الوجه، الرقيق البَشَرَة، الأعرج؛ الأهْتم من جرَّاء إصابته يوم «أُحُد»، هو عبد الرحمن بن عوف..!!

رضى الله عنه، وأرضاه..

* * *

لقد عودتنا طبائع البَشر أن الثراء يُنادى السُّلْطَة..

أى أن الأثرياء يحبون دائمًا أن يكون لهم نفوذ يحمى ثراءهم ويضاعِفُه، ويُشْبع شهوة الصَّلَف والاستعلاء والأنانية التى يثيرها الثراء عادة..

فإذا رأينا «عبد الرحمن بن عوف» فى ثرائه العريض هذا، رأينا إنسانًا عجَبًا يقهر طبائع البَشر فى هذا المجال ويتخطاها إلى سُمُوٍّ فريد..!

حدث ذلك عندما كان «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه يجود بروحه الطاهرة، ويختار ستة رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد..

كانت الأصابع تُومئ نحو ابن عوف وتُشِير..

ولقد فاتحه بعض الصحابة فعلًا فى أنه أحق الستة بالخلافة، فقال:

«والله، لَأن تُؤْخَذ مُدْيَةٌ، فتوضع فى حَلْقى، ثم يُنْفَذ بها إلى الجانب الآخر أَحَبُّ إلىَّ من ذلك»..!!

وهكذا ، لم يكد الستة المختارون يعقدون اجتماعهم ليختاروا أحدهم خليفة بعد الفاروق «عمر» حتى أنبأ إخوانه الخمسة

الآخرين أنه مُتنازل عن الحق الذى أضفاه «عمر» عليه حين جعله أحد الستة الذين يختار الخليفة منهم... وأنَّ عليهم أن يُجْروا عملية الاختيار بينهم وحدهم - أى بين الخمسة الآخرين..

وسرعان ما أحلّه هذا الزهد فى المنْصب مكان الحكَم بين الخمسة الأجلَّاء، فَرَضُوا أن يختار هو الخليفة من بينهم، وقال له الإمام على:

«لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفُك بأنك أمين فى أهل السماء، وأمين فى أهل الأرض»..

واختار «ابن عوف» «عثمان بن عفان» للخلافة، فأمضى الباقون اختياره.

* * *

هذه حقيقة رجل ثَرِىٍّ فى الإسلام..

فهل رأيتم ما صنع الإسلام به حتى رفعه فوق الثراء بكل مغرياته ومُضِلَّاتِه، وكيف صاغه فى أحسن تقويم..؟؟

وها هو ذا فى العام الثانى والثلاثين للهجرة، يجود بأنفاسه..

وتريد أم المؤمنين عائشة أن تخصّه بشرف لم تختصّ به سواه، فتعرض عليه وهو على فراش الموت أن يُدْفن فى حجرتها إلى

جوار الرسول، وأبي بكر، وعمر..

ولكنه مسلم أحسن الإسلام تأديبه، فيستحي أن يرفع نفسه إلى هذا الجوار..!!

ثم إنه على موعد سابق وعهد وثيق مع «عثمان بن مظعون»[1]، إذ تواثقا ذات يوم: أيهما مات بعد الآخر، يدفن إلى جوار صاحبه...

* * *

وبينما كانت روحه تتهيأ لرحلتها الجديدة كانت عيناه تفيضان من الدمع، ولسانه يتمتم ويقول:

«إني أخاف أن أُحْبَسَ عن أصحابي لكثرة ما كان لي من مال»...

ولكن سكينة الله سُرعَان ما تغشته، فكست وجهه غُلالَة رقيقة من الغبطة المشرقة المتهلّلة المطمئنة..

وأُرْهِفَتْ أذناه للسَّمْع... كما لو كان هناك صَوْتٌ عَذْبٌ يقترب منها...

---

(١) عثمان بن مظعون مضت ترجمته فيما سلف من الكتاب.

لعلَّه آنئذ، كان يسمع صدق قول الرسول صلى الله عليه وسلم له منذ عهد بعيد:

«عبد الرحمن بن عوف فى الجنة»...

ولعله كان يسمع أيضًا وعد الله فى كتابه:

﴿الذين يُنْفِقُون أموالهم فى سَبيل الله. ثم لا يُتْبِعُونَ ما أنفقوا مَنًّا ولا أذًى لهم أجرهم عند ربهم ولا خَوْفٌ عليهم ولا هُم يحزنون﴾..

أبو جابر
عبد الله بن عمرو بن حرام
ظليل الملائكة!!

عندما كان الأنصار السبعون يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية، كان عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر بن عبد الله أحد هؤلاء الأنصار..

ولما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم نقباءهم، كان عبد الله بن عمرو أحد النُّقبَاء... جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبًا على قومه من بني سَلَمة..

ولما عاد إلى المدينة وضع نفسه، وماله، وأهله في خدمة الإسلام..

وبعد هجرة الرسول إلى المدينة، كان أبو جابر قد وجد

كل حظوظه السعيدة فى مصاحبة النبى عليه السلام ليله ونهاره..

* * *

وفى غزوة بدر خرج مجاهدًا، وقاتل قتال الأبطال..

وفى غزوة أُحُد تراءى له مصرعه قبل أن يخرج المسلمون للغزو..

وغمره إحساس صادق بأنه لن يعود، فكاد قلبه يطير من الفرح !!

ودعا إليه ولده «جابر بن عبدالله» الصحابى الجليل، وقال له:

«إنى لا أرانى إلا مقتولا فى هذه الغزوة...

«بل لعلى سأكون أول شهدائها من المسلمين..

«وإنى والله، لا أدَعُ أحدًا بعدى أحبَّ إلى منك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم..

«وإن عَلَىَّ دينًا، فاقض عنى دينى، واستَوص بإخوتك خيرًا»...

وفى صبيحة اليوم التالى خرج المسلمون للقاء قريش...

قريش التى جاءت فى جيش لَجِب تغزو مدينتهم الآمنة..

ودارت معركة رهيبة، أدرك المسلمون فى بدايتها نصرًا سريعًا، كان يمكن أن يكون نصرًا حاسمًا، لولا أن الرُّماة الذين أمرهم الرسول عليه السلام بالبقاء فى مواقعهم وعدم مغادرتها أبدًا أغراهم هذا النصر الخاطف على القرشيين، فتركوا مواقعهم فوق الجبل، وشغلوا بجمع غنائم الجيش المنهزم...

هذا الجيش الذى جمع فلوله سريعًا حين رأى ظهر المسلمين قد انكشف تمامًا، ثم فاجأهم بهجوم خاطف من وراء؛ فتحَوَّل نصر المسلمين إلى هزيمة...

* * *

فى هذا القتال المرير، قاتل «عبد الله بن عمرو» قتال مُوَدِّع وشهيد...

ولما ذهب المسلمون بعد نهاية القتال ينظرون شهداءهم...

ذهب «جابر بن عبد الله» يبحث عن أبيه، حتى ألْفاه بين الشهداء، وقد مَثَّل به المشركون، كما مَثَّلوا بغيره من الأبطال..

ووقف جابر وبعض أهله يبكون شهيد الإسلام عبد الله

ابن عمرو بن حرام، ومر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكونه، فقال:

[ابْكوه...

[أو لا تبكوه...

[فإن الملائكة لَتُظِلُّهُ بأجنحتها»..!!

* * *

كان إيمان «أبو جابر» متألقًا ووثيقًا..

وكان حُبُّه - بل شَغَفُه - بالموت فى سبيل الله منتهى أطماحه وأمانيِّه...

ولقد أنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فيما بعد نبأ عظيمًا، يصوره شغفه العظيم بالشهادة..

قال عليه الصلاة والسلام لولده جابر يومًا:

«يا جابر:
ما كلم الله أحدًا قَطّ إلا من وراء حجاب...
ولقد كلّم كفاحًا - أى مواجهة -
فقال له: يا عبدى، سلنى أُعْطِك..
فقال: ياربِّ، أسألك أن تردَّنى إلى الدنيا، لِأُقْتَل فى

سبيلك ثانية..

قال الله له:

إنه قد سبق القول منى: أنهم إليها لا يُرْجعون.

قال: ياربِّ فأبلغ مَنْ ورائى بما أعطيتنا من نعمة..

فأنزل الله تعالى:

﴿ولا تحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فى سبيل الله أمْوَاتًا، بل أحْيَاءٌ عند رَبِّهِم يُرْزقون، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ الله من فضله، ويَسْتبشِرُونَ بالذين لم يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِم. ألَّا خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾.

* * *

وعندما كان المسلمون يتعرفون على شهدائهم الأبرار، بعد فراغ القتال فى «أُحُد»...

وعندما تعرَّف أهل «عبد الله بن عمرو» على جثمانه، حملته زوجُته على ناقتها وحملت معه أخاها الذى استشهد أيضًا، وهَمَّتْ بها راجعة إلى المدينة لتدفنها هناك، وكذلك فعل بعض المسلمين بشهدائهم...

بيد أن مُنَادى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحق بهم

وناداهم بأمر الرسول أَنْ:

«ادفنوا القتلى فى مصارعهم»...

فعاد كل منهم بشهيده..

ووقف النبى الكريم صلى الله عليه وسلم يُشْرف على دَفْنِ أصحابه الشهداء، الذين صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه، وبذلوا أرواحهم الغالية قُرْبانًا متواضعًا لله ولرسوله..

ولما جاء دور عبد الله بن حرام ليدفن، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ادفنوا عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح فى قبر واحد، فإنهما كان فى الدنيا مُتَحَابَّيْن، مُتَصَافيين»...

* * *

والآن...

وفى خلال اللحظات التى يُعَدُّ فيها القبر السعيد لاستقبال الشهيدينِ الكريمين، تَعالَوْا نلْقِ نظرة مُحِبَّة على الشهيد الثانى «عمرو بن الجموح»...

* * *

عمرو بن الجموح

أريد أن أخطر بعرجتي في الجنة!!

إنه صِهْر عبد الله بن عمرو بن حرام، إذ كان زوجًا لأخته «هند بنت عمرو»..

وكان «ابن الجموح» واحدًا من زعماء المدينة، وسيدًا من سادات بنى سَلَمة...

سبقه إلى الإسلام ابنه «مُعاذ بن عمرو» الذى كان أحد الأنصار السبعين، أصحاب «بيعة العقبة»..

وكان «معاذ بن عمرو» وصديقه «معاذ بن جبل»[1] يدعوان للإسلام بين أهل المدينة فى حماسة الشباب المؤمن الجرىء...

(١) قد سلفت ترجمته.

وكان من عادة الناس هناك أن يتخذ الأشراف فى بيوتهم أصنامًا رمزية غير تلك الأصنام الكبيرة المنصوبة فى محافلها، والتى تَؤُمُّها جموع الناس..

وعمرو بن الجموح باعتباره شريفًا وسَيِّدًا، كان قد اصطنع صنمًا أقامه فى داره وأسماه «منافًا».

واتفق ولده «معاذ بن عمرو» مع صديقه «معاذ بن جبل» على أن يجعلا من صنم «عمرو بن الجموح» سُخرِية وَلَعِبًا..

فكانا يُدْلجان عليه ليلا، ثم يحملانه ويطرحانه فى حفرة يطرح الناس فيها فضلاتهم..

ويصبح «عمرو» فلا يجد «منافًا» فى مكانه، ويبحث عنه حتى يجده طريح تلك الحفرة.. فيثور ويقول:

- ويلكم، مَنْ عدا على آلهتنا هذه الليلة..!؟

ثم يغسله. ويُطهِّره، ويطيِّبه...

فإذا جاء ليل جديد، صنع المعاذان «مُعاذ بن عمرو» و«مُعاذ ابن جبل» بالصنم مثل ما يفعلان به كل ليلة.

حتى إذا سئم «عمرو» جاء بسيفه ووضعه فى عنق «مناف» وقال له: إن كان فيك خير فدافع عن نفسك..!!

فلما أصبح لم يَجِدْه مكانه.. بل وجده فى الحفرة ذاتها طريحًا، بيد أنه فى هذه المرة لم يكن فى حفرته وحيدًا.. بل كان مشدودًا مع كلب ميت فى حبل وثيق.

وإذا هو فى غضبه، وأَسَفِه، ودَهَشه، اقترب منه بعض أشراف المدينة الذين كانوا قد سبقوا إلى الإسلام... وراحوا، وهم يشيرون بأصابعهم إلى الصنم المنكَّس المقرون بكلب ميت، يخاطبون فى «عمرو بن الجموح» عقله وقلبه ورُشده، محدثينه عن الإله الحق، العلى الأعلى، الذى ليس كمثله شىء..

وعن «محمد» الصادق الأمين، الذى جاء الحياة ليعطى لا ليأخذ.. ليهدى، لا ليضلّ...

وعن الإسلام، الذى جاء يحرر البشر من الأغلال - جميع الأغلال - وجاء.. يحيى فيهم روح الله وينشر فى قلوبهم نوره.

وفى لحظات وجد «عمرو» نفسه ومصيره..

وفى لحظات - ذهب، فطهّرَ ثوبه، وبدنه... ثم تطيَّب وتأنَّقَ، وتألَّق، وذهب عالى الجبهة مشرق النفس، ليبايع خاتم المرسلين، وليأخذ مكانه مع المؤمنين.

* * *

قد يسأل سائل نفسه: كيف كان رجال من أمثال «عمرو ابن الجموح».. وهم زعماء فى قومهم وأشراف.. كيف كانوا يؤمنون بأصنام هازلة كل هذا الإيمان...؟

وكيف لم تعصمهم عقولهم عن مثل هذا الهراء..

وكيف نُعِدّهم اليوم - حتى مع إسلامهم وتضحياتهم - من عظماء الرجال..؟

ومثل هذا السؤال يبدو إيراده سهلا فى أيامنا هذه حيث لا نجد طفلا يسيغ عقله أن ينصب فى بيته خشبة ثم يعبدها..

لكن فى أيام خلت، كانت عواطف البشر تتسع لمثل هذا الصنيع دون أن يكون لذكائهم ونبوغهم حيلة تجاه تلك التقاليد..!!

وحسبنا لهذا مثلا «أثينا»...

أثينا فى عصر «باركليز» و«فيثاغورس» و«سقراط»..

أثينا التى كانت قد بَلَغت رُقِيًّا فكريًّا يبهر الألباب، كان أهلها جميعًا: فلاسفة، وحكامًا، وجماهير يؤمنون بأصنام منحوتة إيمانًا تناهى فى البلاهة والسخرية!!

ذلك أن الوجدان الدينى فى تلك العصور البعيدة، لم يكن يسير فى خط مُوازٍ للتفوق العقلى..

* * *

أسلم «عمرو بن الجموح» قلبه، وحياته لله رب العالمين، وعلى الرغم من أنه كان مفطورًا على الجود والسخاء، فإن الإسلام زاد جوده مضاء، فوضع كل ماله فى خدمة دينه وإخوانه.

سأل الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من «بنى سَلَمَة» قبيلة «عمرو بن الجموح» فقال:

- مَنْ سَيِّدكم يا بنى سَلَمة...؟

قالوا: الجدّ بن قيس، على بخل فيه...

فقال عليه السلام:

«وأىُّ داء أَدْوَى من البخل!!

بل سيدكم الجعْدُ الأبيض، عمرو بن الجموح»..

فكانت هذه الشهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تكريمًا لابن الجموح، أى تكريم...!

وفى هذا قال شاعر الأنصار:

فَسَوَّد عمرَو بن الجموح لجودِهِ   وحقٌّ لعمرو بالنَّدَى أن يُسَوَّدا
إذا جاءه السُّؤَّالُ أذهب ماله   وقال: خذوه، إنه عائد غدا

وبمثل ما كان «عمرو بن الجموح» يجود بماله فى سبيل الله، أراد أن يجود بروحه وبحياته..

ولكن كيف السبيل؟؟

إن فى ساقه عرجًا شديدًا يجعله غير صالح للاشتراك فى قتال.

وإن له أربعة أولاد، كلهم مسلمون، وكلهم رجال كالأسود، كانوا يخرجون مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الغزو، ويثابرون على فريضة الجهاد..

ولقد حاول «عمرو» أن يخرج فى غزوة «بدر» فتوسَّل أبناؤه إلى النبى صلى الله عليه وسلم كى يقنعه بعدم الخروج، أو يأمره به إذا هو لم يقتنع..

وفعلا، أخبره النبى صلى الله عليه وسلم أن الإسلام يعْفيه من الجهاد كفريضة، وذلك لعجزه الماثل فى عرجه الشديد..

بيد أنه راح يُلحُّ ويرجو.. فأمره الرسول بالبقاء فى المدينة.

* * *

وجاءت غزوة «أُحُد» فذهب «عمرو» إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يتوسل إليه أن يأذن له وقال له:

«يا رسول الله إنَّ بَنِيَّ يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك إلى الجهاد...

«ووالله إنى لأرجو أن - أَخْطِرَ - بِعَرْجَتى هذه فى الجنة»...

وأمام إصراره العظيم أُذن له النبى عليه السلام بالخروج، فأخذ سلاحه، وانطلق يَخطِر فى حبور وغبطة، ودعا ربه بصوت ضارع:

«اللهم ارزقنى الشهادة ولا تردَّنى إلى أهلى».

* * *

والتقى الجمعان يوم «أُحُد»...

وانطلق «عمرو بن الجموح» وأبناؤه الأربعة يضربون بسيوفهم جيش الظلام والشرك...

كان «عمرو» يخطِرُ وسط المعمعة الصاخبة، ومع كل خطرة يقطف سيفه رأسًا من رءوس الوثنية..

كان يضربَ الضربة بيمينه، ثم يلتفت حواليه فى الأفق الأعلى، كأنه يتعجل قدوم الملاك الذى سيقبض روحه، ثم يصحبها إلى الجنة..

أجل... فلقد سأل ربه الشهادة، وهو واثق أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب له...

وهو مُغْرَمٌ - أىُّ مُغرم - بأن يخطر بساقه العرجاء فى الجنّة ليعلم أهلها أن محمدًا رسولٍ الله صلى الله عليه وسلم، يعرف كيف يختار الصِّحَاب، وكيف يربِّى الرجال. !!

* * *

وجاء ما كان ينتظر.

ضربة سيف أَوْمَضَتْ، مُعلنة ساعة الزفاف...

زفافِ شهيد مجيد إلى جنات الخلد، وفردوس الرحمن.. !!

وإذ كان المسلمون يدفنون شهداءهم، قال الرسول عليه السلام أمره الذى سمعناه من قبل:

«انظروا، فاجعلوا عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو ابن الجموح فى قبر واحد، فإنهما كانا فى الدنيا متحابين متصافيين».. !!

ودُفن الحبيبان الشهيدان الصديقان فى قبر واحد، تحت ثرى الأرض التى تَلَقَّتْ جثمانيهما الطاهرين، بعد أن شهدت بطولتهما الخارقة.

وبعد مُضِى ست وأربعين سنة على دفنهما ورفاقهما، نزل سيلٌ شديد غَطَّى أرض القبور، بسبب عين من الماء أجراها هناك معاوية، فسارع المسلمون إلى نقل رُفات الشهداء، فإذا هُم كما وصفهم الذين اشتركوا فى نقل رُفاتهم:

«لَيِّنَة أجسادهم..

تتثنى أطرافهم»... !!

وكان «جابر بن عبد الله» لا يزال حيًّا، فذهب مع أهله لينقل رُفات أبيه «عبد الله بن عمرو بن حرام»، ورُفات زوج عمته «عمرو بن الجموح»...

فوجدهما فى قبرهما، كأنهما نائمان... لم تأكل الأرض منهما شيئًا، ولم تفارق شفاهَهما بَسْمَةُ الرضا والغبطة التى كانت يوم دُعِيا للقاء الله...

أتعجبون..؟

كلا، لا تعجبوا..

فإن الأرواح الكبيرة، التَّقِية، النَّقِيَّة، التى سيطرت على مصيرها... تترك فى الأجساد التى كانت مَوْئلا لها، قدرًا من المناعة يدرأ عنها عوامل التحلل، وسطوة التراب..

حَبِيبُ بن زَيْد

أسْطُورَةُ فِـــدَاءٍ وَحُبّ

فى بيعة العقبة الثانية التى مر بنا ذكرها كثيرًا، والتى بايع الرسول صلى الله عليه وسلم فيها سبعون رجلا وسيدتان من أهل المدينة، كان «حبيب بن زيد» وأبوه «زيد بن عاصم» رضى الله عنهما من السبعين المباركين..

وكانت أُمُّه «نُسَيبة بنت كعب» أُولى السيدتين اللتين بايعتا رسول الله صلى الله عليه وسلم..

أما السيدة الثانية، فكانت خالته..!!

هو إذن مؤمن عريق جرى الإيمان فى أصلابه وترائبه...

ولقد عاش إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد

هجرته إلى المدينة لا يتخلف عن غزوة، ولا يقعد عن واجب..

* * *

وذات يوم شهد جنوب الجزيرة العربية كذَّابَيْن عاتيَيْن يدَّعيان النبوَّة ويسوقان الناس إلى الضلال...

خرج أحدهما بصنعاء، وهو الأسود بن كعب العنسى..

وخرج الثانى باليمامة، وهو مُسَيلمة الكذاب...

وراح الكذابان يحرضان الناس على المؤمنين الذين استجابوا لله، وللرسول فى قبائلهما، ويُحَرِّضان على مبعوثى رسول الله إلى تلك الديار..

وأكثر من هذا، راحا يُشَوِّشان على النُّبُوَّة نفسها، ويعيثان فى الأرض فسادًا وضلالا..

* * *

وفوجئ الرسول يومًا بمبعوثٍ بعثه «مُسيلمة» يحمل منه كتابًا يقول فيه «من مُسيلمة رسول الله، إلى «محمد» رسول الله.. سلام عليك.. أما بعد، فإنى قد أُشْرِكْتُ فى الأمر، معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكنَّ قريشًا قوم يعتدون».. !!!

ودعا الرسول أحد أصحابه الكاتبين، وأملى عليه ردَّه على مسيلمة:

«بسم الله الرحمن الرحيم...

مِن «محمد» رسول الله، إلى مسيلمة الكذَّاب.

«السلام على مَن اتَّبع الهدى..

«أما بعد، فإن الأرض لله، يُورِثُها مَن يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».. !

وجاءت كلمات الرسول هذه كفلق الصبح. ففضحت كذَّاب بنى حنيفة الذى ظنَّ النبوَّة مُلكًا، فراح يطالب بنصف الأرض ونصف العِباد.. !

وحمل مبعوث مسيلمة ردَّ الرسول عليه السلام إلى مسيلمة الذى ازداد ضَلالا وإضلالا..

* * *

ومضى الكذَّاب ينشر إفْكَه وبهتانه، وازداد أذاه للمؤمنين وتحريضه عليهم، فرأى الرسول أن يبعث إليه رسالةً ينهاه فيها عن حماقاته..

ووقع اختياره عليه السلام على «حبيب بن زيد» ليحمله الرسالة إلى مسيلمة..

وسافر «حبيب» يغذُّ الخُطى، مُغتبطًا بالمهمة الجليلة التى ندبه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مُمَنِّيًا نفسه بأن يهتدى إلى الحق، قَلبُ مسيلمة فيذهب «حبيب» بعظيم الأجر والمثوبة.

* * *

وبلغ المسافر غايته..

وفضَّ مسيلمة الكذاب الرسالة التى أعشاه نورُها، فازداد إمعانًا فى ضلاله وغروره..

ولما لم يكن مسيلمة أكثر من أفّاق دَعِيّ، فقد تحلى بكل صفات الأفّاقين الأدْعياء..!!

وهكذا، لم يكن معه من المروءة ولا من العُروبة والرجولة ما يردُّه عن سفك دم رسول يحمل رسالة مكتوبة.. الأمر الذى كانت العرب تحترمه وتقدسه..!!

وأراد قَدَرُ هذا الدين العظيم - الإسلام - أن يُضيف إلى دروس العظمة والبطولة التى يُلْقيها على البشرية بأسرها، درسًا جديدًا موضوعه هذه المرة، وأستاذه أيضًا، حبيب بن زيد..!!

جمع الكذّاب مسيلمة قومه، وناداهم إلى يوم من أيامه المشهودة..

وجيء بمبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم – حبيب بن زيد – يحمل آثار تعذيب شديد أنزله به المجرمون مؤملين أن يسلبوا شجاعة روحه، فيبدو أمام الجمع متخاذلا مستسلمًا، مُسارعًا إلى الإيمان بمسيلمة حين يُدعى إلى هذا الإيمان أمام الناس.. وبهذا يحقق الكذاب الفاشل معجزة موهومة أمام المخدوعين به..

* * *

قال مسيلمة لـ «حبيب»:

– أتشهد أن محمدًا رسول الله..؟

وقال حبيب:

– نعم: أشهد أن محمدًا رسول الله.

وكست صُفرة الخزى وجه مسيلمة، وعاد يسأل:

– وتشهد أنى رسول الله..؟؟

وأجاب حبيب فى سخرية قاتلة:

– إنى لا أسمع شيئًا..!!

وتحوَّلت صفرة الخزى على وجه الكذَّاب إلى سواد حاقد مخبول..

لقد فشلت خُطته، ولم يُجده تعذيبه، وَتَلَقَّى أمام الذين جمعهم ليشهدوا معجزته.. تلقى لطمة قوية أسقطت هيبته الكاذبة فى الوحل..

هنالك هاج كالثور المذبوح، ونادَى جلَّادَه الذى أقبل ينخس جسد «حبيب» بسِنٍّ سيفه..

ثم راح يقطع جسده، قطعة قطعة، وبُضْعَة بُضْعَة، وعضوًا عضوًا...

والبطل العظيم لا يزيد على همهمة يردد بها نشيد إسلامه:

«لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله»...

* * *

لو أن «حبيبًا» أنقذ حياته يومئذ بشىء من المسايرة الظاهرة لمسيلمة، طاويًا على الإيمان صدره، لما نقص إيمانه شيئًا، ولا أصاب إسلامه سُوء...

ولكن الرجل الذى شهد مع أبيه، وأمه، وأخيه، وخالته بيعة العقبة، والذى حمل منذ تلك اللحظات الحاسمة المباركة مسئولية

بيعته وإيمانه كاملة غير منقوصة، ما كان له أن يوازن لحظة من نهار بين حياته ومبدئه..

ومن ثمَّ لم يكن أمامه لكى يربح حياته كلها مثل هذه الفرصة الفريدة التى تمثّلت فيها قصة إيمانه كلها.. ثبات، وعظمة، وبطولة، وتضحية، واستشهاد فى سبيل الهدى والحق يكاد يفوق فى حلاوته، وفى روعته كل ظفر وكل انتصار..!!

* * *

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم نبأ استشهاد مبعوثه الكريم، واصْطَبر لحكم ربه، فهو يرى بنور الله مصير هذا الكذّاب مُسَيْلمة، ويكاد يرى مَصْرَعه رَأْىَ العين..

أما «نَسَيْبة بنت كعب» أُمّ «حبيب» فقد ضغطت على أسنانها طويلا، ثم أطلقت يمينًا مبرورة لَتَثْأَرَنَّ لولدها من «مسيلمة» ذاته، ولَتَغُوصَن فى لحمه الخبيث برمحها وسيفها..

وكان القَدَر الذى يرمُق آنئذ جزعها وصبرها وجلدها، يُبْدِى إعجابًا كبيرًا بها، ويقرر فى نفس الوقت أن يقف بجوارها حتى تبرَّ بيمينها..!!

* * *

ودارت من الزمان دورة قصيرة.. جاءت على أثرها الموقعة الخالدة، موقعة اليمامة..

وجهَّز أبو بكر الصِّدِّيق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش الإسلام الذاهب إلى اليمامة حيث أعدَّ مسيلمة أضخم جيش..

وخرجت «نُسَيبة» مع الجيش..

وألْقَت بنفسها فى خِضَمِّ المعركة، فى يُمناها سيف، وفى يُسْرَاها رمْح، ولسانها لا يكفُّ عن الصياح:

«أين عدو الله مُسَيلمة».. ؟؟

ولما قُتِلَ مسيلمة، وسقط أتباعه كالْعِهن المنفوش، وارتفعت رايات الإسلام عزيزة ظافرة.. وقفت «نُسَيبة» وقد مُلِئَ جسدها الجليل، القوىُّ بالجراح وطعنات الرماح...

وقفت تستجلى وجه ولدها الحبيب، الشهيد «حبيب» فوجدته يملأ الزمان والمكان.. !!

أجَلْ...

ما صَوَّبَتْ «نُسَيبة» بصرها نحو راية من الرايات الخفاقة المنتصرة الضاحكة إلا رأت عليها وجه ابنها «حبيب» خفاقًا.. منتصرًا... ضاحكًا...

أُبَىّ بْن كَعْب
ليهْنِكَ العِلْم، أبا المُنْذِر

سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم:

«يا أبا المّنذِر...؟؟

أىّ آية من كتاب الله أعْظَم..؟؟»

فأجاب قائلا:

«الله ورسوله أعلم»...

وأعاد النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم سؤاله:

«أبا المّنذِر...؟؟ أىّ آية من كتاب الله أعْظَم..؟؟»

وأجاب أُبَىّ:

«الله لا إلٰه إلا هو الحىُّ القيوم»...

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرَه بيده، وقال له والغبطة تأتلق على مُحَيَّاه:

«لِيَهنِكَ العلم أبا المنذر»...

* * *

إن «أبا المنذر» الذى هنأه الرسول الكريم بما أنعم الله عليه من علم وفهْم هو «أُبَىٌّ بن كَعْب» الصحابى الجليل..

هو أنصارى من الخزْرَج، شهد العقبة، وبدرًا، وبقية المشاهد...

وبلغ فى المسلمين الأوائل منزلة رفيعة، ومكانًا عاليًا، حتى لقد قال عنه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنهما:

«أُبَىّ، سيِّد المسلمين»...

وكان «أُبى بن كعب» فى مقدمة الذين يكتبون الوَحْىَ، ويكتبون الرسائل...

وكان فى حفظه القرآن الكريم، وترتيله إياه، وفهمه آياته، من المتفوقين...

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا:

«يا أُبىّ بن كعب..

إنى أمِرْتُ أن أعْرِض عليك القرآن»...

وأُبَىٌّ يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يتلقى أوامره من الوحى...

هنالك سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نشوة غامرة:

«يا رسول الله - بأبِى أنت وأمى - ... وهل ذُكِرْتُ لك باسمى»..؟؟

فأجاب الرسول:

«نعم...

باسمك، ونَسَبك، فى الملإ الأعلى».. !!

وإن مُسْلماً يبلغ من قلب النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه المنزلة لهو مُسْلم عظيم جدٌّ عظيم..

وطوال سنوات الصُّحْبَة، وأبىّ بن كعب قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهل من مَعِينه العذب المعطاء..

وبعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، ظلَّ أبىّ على عهده الوثيق.. فى عبادته، وفى قوة دينه، وخُلُقه..

وكان - دائمًا - نذيرًا فى قومه..

يذكرهم بأيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كانوا عليه من عهد، وسلوك، وزهد..

ومن كلماته الباهرة التى كان يهتف بها فى أصحابه:

«لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوهنا واحدة..

«فلما فارَقَنا، اختلفت وجوهنا يمينًا وشمالاً»...

* * *

ولقد ظلَّ مستمسكًا بالتقوى، معتصمًا بالزهد، فلم تستطع الدنيا أن تفتنه أو تخدعه..

ذلك أنه كان يرى حقيقتها فى نهايتها...

فمهما يعش المرء، ومهما يتقلب فى المناعم والطيبات، فإنه مُلَاقٍ يومًا يتحول فيه كل ذلك إلى هَبَاء، ولا يجد بين يديه إلا ما عمل من خير، أو ما عمل من سُوء..

وعن الدنيا يتحدث «أُبَيّ» فيقول:

«إن طعامَ ابن آدمَ، قد ضُرِب للدنيا مَثَلا..

«فإنْ مَلَّحه، وَقَذَّحَه، فانظر إلى ماذا يصير»..؟؟

* * *

وكان «أُبَىّ» إذا تحدث للناس استشرفَتْهُ الأعناق والأسماع فى شوق وإصغاء..

ذلك أنه من الذين لم يخافوا فى الله أحدًا.. ولم يطلبوا من الدنيا غرضًا..

وحين اتسعت بلاد الإسلام، ورأى المسلمين يجاملون وُلَاتِهم فى غير حق، وقف يرسل كلماته المنذرة:

«هَلَكوا، ورَبِّ الكعبة..

«هلكوا وأهلكُوا..

«أمَا إنى لا آسَى عليهم، ولكن آسَى عَلَى مَنْ يُهلكون من المسلمين»..

* * *

وكان على كثرة وَرَعِه وتُقَاهُ، يبكى كلما ذكر الله، واليوم الآخر..

وكانت آيات القرآن الكريم وهو يرتلها، أو يسمعها، تهزه وتهزُّ كل كيانه..

على أنَّ آيةً من تلك الآيات الكريمة، كان إذا سمعها أو تلاها تغشّاه من الأسى ما لا يوصف..

تلك هى:

﴿قُلْ هوَ القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذابًا من فَوْقِكُمْ، أو مِنَ تحتِ أرجُلِكُمْ، أو يَلْبِسكُمْ شِيَعًا.. ويُذيق بعضكم بأسَ بعض﴾..

كان أكثر ما يخشاه «أُبيّ» على الأمة المسلمة أن يأتى عليها اليوم الذى يصير فيه بأسُ أبنائها بينهم شديدًا..

وكان يسأل الله العافية دومًا.. ولقد أدركها بفضل من الله ونعمة.. ولقى ربه مؤمنًا، وآمنًا، ومُثَابًا...

سَعْدُ بْن مُعَاذ
هَنِيئًا لَكَ، أَبَا عَمْرو

فى العام الواحد والثلاثين من عمره، أسلم..

وفى السابع والثلاثين، مات شهيدًا..

وبين يوم إسلامه، ويوم وفاته، قضى «سعد بن معاذ» رضى الله عنه أيامًا شاهقة فى خدمة الله ورسوله..

* * *

انظروا. !

أترون هذا الرجل الوسيم، الجليل، الفارع الطول، المشرق الوجه، الجسيم، الجزْل...؟؟

إنه هو...

يقطع الأرض وثْبًا وركضًا إلى دار «أسعد بن زُرَارة» ليرى هذا الرجل الوافد من مكة «مصعب بن عمير» الذى بعث به «محمد عليه الصلاة والسلام» إلى المدينة يبشر فيها بالتوحيد والإسلام..

أجل... هو ذاهب إلى هناك ليدفع بهذا الغريب خارج حدود المدينة، حاملا معه دينه.. وتاركًا للمدينة دينها..!!

* * *

ولكنه لا يكاد يقترب من مجلس «مصعب» فى دار ابن خالته و «أُسيد بن زُرَارة» حتى ينتعش فؤاده بنسمات حلوة هَبَّت عليه هبوب العافية...

ولا يكاد يبلغ الجالسين، ويأخذ مكانه بينهم، مُلقِيًا سمعه لكلمات «مصعب» حتى تكون هداية الله قد أضاءت نفسه ورُوحَه...

وفى إحدى مفاجآت القدر الباهرة المُذْهِلة، يُلقى زعيم الأنصار حربته بعيدًا، ويبسط يمينه مبايعًا رسول الله صلى الله عليه وسلم...

وبإسلام «سعد بن مُعاذ» تُشرق فى المدينة شمس جديدة،

ستدور فى فلكها قلوبٌ كثيرة تُسلِمُ مع «محمد» لله رَبِّ العالمين..!!

* * *

أسلم سعد... وحمل تبعات إسلامه فى بطولة وعظمة.

وعندما هاجر رسول الله وصحبه إلى المدينة كانت دور بنى عبد الأشهل - قبيلة سعد - مفتحة الأبواب للمهاجرين، وكانت أموالهم كلها تحت تصرفهم فى غير مَنٍّ، ولا أذى... ولا حساب..!!

* * *

وتجىء غزوة بدر...

ويجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين والأنصار، ليشاورهم فى الأمر.

ويُيَمِّمُ وجهه الكريم شَطْرَ الأنصار ويقول:

«أشير علىَّ أيها الناس..»

وينهض «سعد بن مُعاذ» قائمًا كالعَلَم.. يقول:

«يارسول الله..

لقد آمنا بك، وصَدَّقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو

الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا..

«فامْضِ يارسول الله لما أردت، فنحن معك...

«ووَالذى بعثك بالحق، لو استَعْرَضْتَ بنا هذا البحر فَخُضْتَهُ لخضناهُ معك، ماتخلف منا رجل واحد، وما نَكْرَهُ أن تَلقى بنا عدونا غدًا...

«إنَّا لَصُبرٌ فى الحرب، صُدُقٌ فى اللقاء..

«ولعلَّ الله يُرِيك منا ماتقرّ به عينك..

«فَسِرْ بنا على بركة الله»..

* * *

أَهَلَّتْ كلمات «سعد» كالْبُشْريات، وتألق وجه الرسول رضًا وسعادة وغبطة، فقال للمسلمين:

«سيرُوا وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين.. والله.. لكأنى أنظرُ إلى مَصارع القوم»..

وفى غزوة «أُحُد» وعندما تشتَّتَ المسلمون تحت وقع المباغتة الداهمة التى فاجأهم بها جيش المشركين، لم تكن العين لتخْطئ مكان «سعد بن معاذ».

لقد سَمَّر قدميه فى الأرض بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذود عنه ويدافع فى استبسال هو له أهل، وبه جدير!!

* * *

وجاءت غزوة الخندق، لتتجلّى رجولة «سعد» وبطولته تجلّيًا باهرًا ومجيدًا..

وغزوة الخندق هذه، آية بينة على المكايدة المريرة الغادرة التى كان المسلمون يُطارَدُون بها فى غير هوادة، من خصوم لا يعرفون فى خصومتهم عدلا ولا ذِمَّة.

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يحيَوْن بالمدينة فى سلام يعبدون ربهم، ويتواصَوْنَ بطاعته، ويرجون أن تكُفَّ قريش عن إغاراتها وحروبها، إذا فريق من زعماء اليهود يخرجون خِلْسَةً إلى مكة محرضين قريشًا على رسول الله، وباذلين لها الوعود والعهود على أن يقفوا بجانب القرشيين إذا هم خرجوا لقتال المسلمين...

واتفقوا مع المشركين فعلا، ووضعوا معًا خطة القتال والغزو..

وفى طريقهم وهم راجعون إلى المدينة حَرَّضوا قبيلة من أكبر قبائل العرب، هى قبيلة «غطفان» واتفقوا مع زعمائها على الانضمام لجيش قريش..

وُضِعت خطة الحرب، ووُزِّعت أدوارها.. فقريش وغطفان يهاجمان المدينة بجيش عَرَمرم كبير..

واليهود يقومون بدور تخريبى داخل المدينة وحولها فى الو ـ الذى يباغتها فيه الجيش المهاجم..!!

ولما علم النبى عليه الصلاة والسلام بالمؤامرة الغادرة راح يُعِدُّ لها العدة.. فأمر بحفر خندق حول المدينة ليعوق زحف المهاجمين.

وأرسل سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة إلى «كعب بن أسد» زعيم يهود بنى قريظة، ليتبيَّنَا حقيقة موقف هؤلاء من الحرب المرتقبة، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يهود بنى قريظة عهود ومواثيق..

فلما التَقى مبعوثا الرسول بزعيم بنى قريظة فوجئا به يقول لهما:

«ليس بيننا وبين محمد عهد ولا عقد»..!!

* * *

عَزَّ على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتعرض أهل المدينة لهذا الغزو المُدَمْدِم، والحصار المُنهِك، ففكر فى أن يعزل غطفان عن قريش، فينقص الجيش المهاجم نصف عدده، ونصف قوته، وراح

بالفعل يفاوض زعماء غطفان على أن ينفضوا أيديهم من هذه الحرب، ولهم لقاء ذلك ثلث ثمار المدينة، ورضى قادة غطفان، ولم يبق إلّا أن يُسَجَّل الاتفاق فى وثيقة ممهورة..

وعند هذا المَدَى من المحاولة، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يَرَ من حقه أن ينفرد بالأمر، فدعا إليه أصحابه — رضى الله عنهم — ليشاورهم..

واهتم — عليه الصلاة والسلام — اهتمامًا خاصًّا برأى سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة.. فهما زعيما المدينة، وهما بهذا أصحاب حق أوَّل فى مناقشة هذا الأمر، واختيار موقف تجاهه..

* * *

قصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما حديث التفاوض الذى جرى بينه وبين زعماء غطفان.. وأنبأهما أنه إنما لجأ لهذه المحاولة، رغبة منه فى أن يبعد عن المدينة وأهلها هذا الهجوم الخطير، والحصار الرهيب..

وتقدم السَّعْدان إلى رسول الله بهذا السؤال:

«يا رسول الله...

أهذا رأى تختاره، أم وحى أمرك الله به»؟؟

قال الرسول:

«بل أمر أختاره لكم..

«والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالَبوكُم من كل جانب؛ فأردتُ أن أكْسِرَ عنكم من شوكتهم إلى أمْرٍ مَّا»..

وأَحَسَّ «سعد بن مُعاذ» أن أقدارهم كرجال وكمؤمنين تواجِهُ امتحانًا، أيَّ امتحان..

هنالك قال:

«يا رسول الله...

قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من مدينتنا تمرة، إلّا قِرًى - أي كرمًا وضيافة - أو بيعًا..

«أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا..؟؟

«والله مالنا بهذا من حاجة..

«والله لا نعطيهم إلا السيف.. حتى يحكم الله بيننا وبينهم».. !!

وعلى الفور، عدلَ «الرسول» صلى الله عليه وسلم عن رأيه، وأنبأ زعماء «غطفان» أن أصحابه رفضوا مشروع المفاوضة، وأنه أقرَّ رأيهم والتزم به...

* * *

وبعد أيام شهدت المدينة حصارًا رهيبًا..

والحق أنه حصار اختارته هى لنفسها، أكثر مما كان مفروضًا عليها، وذلك بسبب الخندق الذى حُفِر حولها ليكون جُنَّةً لها ووقاية..

ولبس المسلمون لباس الحرب.

وخرج «سعد بن معاذ» حاملا سيفه ورمحه وهو ينشد ويقول:

لَبِّثْ قليلا يشهَدِ الهيجا جَمَلْ ماأجْمَل الموتَ إذا حَانَ الأجل!

وفى إحدى الجولات تلقَّتْ ذراع «سعد» سهمًا وبيلا، قذفه به أحد المشركين..

وتفجَّرَ الدم من وريده وأُسْعِفَ سريعًا إسعافًا مؤقتًا يرقأُ به دمه، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يُحْمل إلى المسجد، وأن تُنْصَب له به خيمة حتى يكون على قرب منه دائمًا أثناء تمريضه..

وحمل المسلمون فتاهم العظيم إلى مكانه فى مسجد الرسول..

ورفع «سعد» بصره شَطْر السماء، وقال:

«اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبْقِنى لها.. فإنه لا قوم أحب إلىَّ أن أجاهدهم من قوم آذَوا رسولك، وكذبوه، وأخرجوه...

«وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعل ما أصابنى اليوم طريقًا للشهادة...

«ولا تمتنى حتى تقرَّ عينى من بنى قُرَيظة»..!!

* * *

لك الله يا سعد بن معاذ..!

فمن ذا الذى يستطيع أن يقول مثل هذا القول، فى مثل هذا الموقف سواك..؟؟

ولقد استجاب الله دعاءه..

فكانت إصابته هذه طريقه إلى الشهادة، إذ لقى ربه بعد شهر، متأثرًا بجراحه..

ولكنه لم يَمُت حتى شفى صدرًا من بنى قريظة..

ذلك أنه بعد أن يئست قريش من اقتحام «المدينة»، ودبَّ فى صفوف جيشها الهلع، حمل الجميع متاعهم وسلاحهم، وعادوا مخذولين إلى «مكة»...

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ تَرْك يهود بنى قُرَيظة، يفرضون على «المدينة» غدرهم كلما شاءوا، أمر لم يعد من حقه أن يتسامح تجاهه..

هنالك أمر أصحابه بالسير إلى «بنى قريظة»...

وهناك حاصروهم خمسة وعشرين يومًا...

ولما رأى هؤلاء ألاَّ مَنْجَى لهم من المسلمين، استسلموا، وتقدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجاء أجابهم إليه، وهو: أن يحكم فيهم «سعد بن معاذ»... وكان سعد حليفهم فى الجاهلية...

* * *

أرسل النبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه من جاءوا بسعد ابن معاذ من مخيَّمه الذى كان يمرّض فيه بالمسجد...

جاء محمولاً على دابة، وقد نال منه الإعياء والمرض..

وقال له الرسول:

«يا سعد، احكم فى بنى قريظة»...

وراح «سعد» يستعيد محاولات الغدر التى كان آخرها غزوة الخندق والتى كادت المدينة تهلك فيها بأهلها..

وقال سعد:

«إنى أرى أن يُقْتَل مُقَاتلوهم..

وتُسْبَى ذراريهم..

وتُقَسَّم أموالهم...»

وهكذا لم يمت «سعد» حتى شُفى صدره من بنى قريظة..

* * *

كان جُرح «سعد» يزداد خطره كل يوم، بل كل ساعة...

وذات يوم ذهب رسول الله لعيادته، فألْفَاه يعيش فى لحظات الوداع فأخذ عليه السلام رأسه ووضعه فى حجره، وابتهل إلى الله قائلا:

«اللهم إنَّ سعدًا قد جاهد فى سبيلك، وصَدَّق رسولكَ

وقضى الذى عليه، فتَقَبَّل روحه بخير ما تقبَّلتَ به روحًا»...

وهطلت كلمات النبى صلى الله عليه وسلم على الرُّوح المودِّعة بَرْدًا وسلامًا.

فحاول فى جهد، وفتح عينيه راجيًا أن يكون وجه رسول الله آخر ما تبصرانه فى الحياة، وقال:

«السلام عليك يا رسول الله...

أما إنى لأشهد أنك رسول الله»...

وَتَملَّى النبى وجه سعد آنَ ذاك وقال:

«هَنيئًا لك أبا عمرو»...

* * *

يقول «أبو سعيد الخدرى» رضى الله عنه:

«كنت ممن حفروا لسعد قبره...

«وكنا كلما حفرنا طبقةً من ترابٍ، شممنا ريح المِسْك... حتى انتهينا إلى اللحْد»...

وكان مصاب المسلمين فى «سعد» عظيمًا...

ولكنَّ عزاءهم، كان جليلا، حين سمعوا رسولهم الكريم يقول:

«لقد اهتزَّ عرش الرحمٰن لموت سعد بن مُعاذ»...

سَعْد بن عُبَادَة
حَامِل رَايَةِ الأَنْصَار

لا يُذكر سعد بن مُعاذ، إلا ويُذكر معه سعد بن عُبادة..

فالاثنان زعيما أهل المدينة..

«سعد بن مُعاذ» زعيم الأوْس..

و «سعد بن عُبادة» زعيم الخزرج..

وكلاهما، أسلم مُبَكِّرًا، وشهد بيعة العقبة، وعاش إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم جنديًا مطيعًا، ومؤمنًا صدوقًا..

ولعلَّ «سعد بن عُبادة» ينفرد بين الأنصار جميعًا بأنه حمل نصيبه من تعذيب قريش الذى كانت تنزله بالمسلمين فى مكة..!!

لقد كان طبيعيًا أن تنال قريش بعذابها أولئك الذين يعيشون بين ظهرانيها، ويقطنون مكة..

أما أن يتعرض لهذا العذاب رجل من المدينة.. وهو ليس مجرد رجل.. بل زعيم كبير من زعمائها وسادتها، فتلك مزيّة قُدِّر لابن عُبادة أن ينفرد بها..

وذلك أنه بعد أن تمت بيعة العقبة سِرًّا، وأصبح الأنصار يَتَهيَّئُون للسفر، علمت قريش بما كان من مبايعة الأنصار واتفاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الهجرة إلى المدينة حيث يقفون معه ومن ورائه ضد قوى الشرك والظلام..

وجن جنون قريش،فراحت تُطارد الركب المسافر حتى أدركت من رجاله «سعد بن عُبادة» فأخذه المشركون، وربطوا يديه إلى عُنُقه بشراك رحله وعادوا به إلى مكة، حيث احتشدوا حوله يضربونه وينزلون به ما شاءوا من العذاب..!!

أَسَعْدُ بن عُبادة من يُصْنع به هذا..!؟

زعيم المدينة، الذى طالما أجار مستجيرهم، وحمى تجارتهم، وأكرم وفادتهم حين يذهب منهم إلى المدينة ذاهب..؟؟

لقد كان الذين اعتقلوه، والذين ضربوه لا يعرفونه ولا يعرفون مكانته فى قومه..

ولكن، أتُراهم كانوا تاركيه لو عرفوه.؟؟

ألم ينالوا بتعذيبهم سادة مكة الذين أسلموا..؟؟

إن قريشًا فى تلك الأيام كانت مجنونة، ترى كل مقدرات جاهليتها تتهيأ للسقوط تحت معاول الحق، فلم تعرف سوى إشفاء أحقادها نهجًا، وسبيلا..

أحاط المشركون - كما قلنا - بسعد بن عُبادة ضاربين ومعتدين.. ولْنَدع سعدًا يحكى بقيَّة النبأ:

«... فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىَّ نفر من قريش، فيهم رجل وضىء، أبيضُ، شَعْشاع من الرجال..

«فقلت فى نفسى: إن يَكُ عند أحد من القوم خير، فعند هذا..

«فلما دنا منى رفع يده فلكَمنى لكمة شديدة..

«فقلت فى نفسى: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير..!!

«فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أَوى إلىَّ رجل ممن كان معهم، فقال: وَيْحَك، أما بينك وبين أحد من قريش جِوار..؟

«قلت: بلى.. كُنتُ أُجِير لجبير بن مُطعم تُجَّاره، وَأمنعهم مِمَّن يريد ظلمهم ببلادى، وكُنتُ أُجِيرُ للحارث بن حرب بن أُميَّة..

«قال الرجل: فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما من جوار، ففعلت..

«وخرج الرجل إليهما، فأنبأهما أن رجلا من الخَزْرج يُضرب بالأَبْطَح، وهو يهتف باسميهما، ويذكر أن بينه وبينهما جوارًا..

«فسألاه عن اسمى.. فقال: سعد بن عُبادة..

«فقالا: صدق والله، وجاءا فخلَّصانى من أيديهم»..

غادر «سعد» مكة بعد هذا العدوان الذى صادفه فى أوانه. ليعلَم كم تتسلح قريش بالجريمة ضـد قوم عُـزَّل، يدعـون إلى الخير، والحق، والسلام..

ولقد شحذ هذا العدوان عزمه، وقَرَّر أن يتفانى فى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأصحاب، والإسلام..

* * *

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.. ويُهاجر قبله أصحابه..

وهُناك سَخَّر «سعد» أمواله لخدمة المهاجرين..

كانَ «سعد» جوادًا بالفطرة وبالوراثة..

فهو ابن عُبادة بن دُلَيْم بن حارثة الذى كانت شهرة جوده فى الجاهلية أوسع من كل شهرة..

ولقد صارَ جود «سعد» فى الإسلام آية من آيات إيمانه القوى الوثيق...

قال الرواة عن جوده هذا:

- «كانت جَفْنَة سعد تدور مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بيوته جميعًا»..

وقالوا:

«كان الرجل من الأنصار ينطلق إلى داره، بالواحد من المهاجرين، أو بالاثنين، أو بالثلاثة..

«وكان سعد بن عُبادة ينطلق بالثمانين»..!!

من أجل هذا، كان «سعد» يسأل ربه دائمًا المزيد من خيره ورزقه..

وكان يقول:

«اللهم إنه لا يُصْلِحُنى القليل، ولا أَصلحُ عليه»..!!

ومن أجل هذا، كان خليقًا بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له:

«اللهم اجعل صلواتِك ورحمتك على آل سعد بن عُبادة»..

* * *

ولم يضع «سعد» ثروته وحدها فى خدمة الإسلام الحنيف، بل وضع قوته ومهارته..

فقد كان يجيد الرمى إجادة فائقة.. وفى غزواته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فدائيته حازمة حاسمة..

يقول ابن عباس رضى الله عنهما:

«كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المواطن كلها رايتان..

«مع عليٍّ بن أبى طالب، راية المهاجرين..
«ومع سعد بن عُبادة، راية الأنصار»..

* * *

ويبدو أنَّ الشِّدَّة كانت طابع هذه الشخصية القوية..

فهو شديد فى الحق..

وشديد فى تشبُّثه بما يرى لنفسه من حق..

وإذا اقتنع بأمر نهض لإعلانه فى صراحة لا تعرف المداراة، وتصميم لا يعرف المُسَايرة..

وهذه الشِّدَّة، أو هذا التطرف، هو الذى دَفع الزعيم الأنصارى الكبير إلى مواقف كانت عليه أكثر مما كانت له..

* * *

فيومَ فتح مكة، جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرًا على فَيْلَقٍ من جيش المسلمين..

ولم يكد يشارف أبواب البلَد حتى صاح:

«اليوم، يومُ المَلْحَمة..
اليوم، تُسْتحلُّ الحُرْمَة»..

وسمعها «عمر بن الخطاب» فسارع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلًا:

«يارسول الله ..

«اسمع ما قال سعد بن عُبادة..

«ما نأْمَنُ أَنْ يكون له فى قريش صَوْلة»..

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عليًّا كرَّم الله وجهه أن يدركه، ويأخذ الراية منه، ويتأمَّر مكانه..

إن «سعدًا» حين رأى مكة مُذْعِنَة مستسلمة لجيش الإسلام الفاتح.. تذكَّر كل صور العذاب الذى صَبَّتْهُ على المؤمنين، وعليه هو، ذات يوم..

وتذكَّر الحروب التى شَنَّتها على قوم وُدَعاء.. كل ذنبهم أنهم يقولون: لا إله إلا الله ، فدفعته شِدَّته إلى الشماتة بقريش وتوعدها فى يوم الفتح العظيم..

* * *

وهذه الشِّدَّة نفسها، أو قُل هذا التطرف الذى كان يُشكل جزءًا من طبيعة «سعد»، هو الذى جعله يقف يوم السقيفة موقفه المعروف..

فعلَى أثَر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، التف حوله - جماعة من الأنصار فى سَقيفة «بنى ساعدة» منادين بأن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار..

كانت خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفًا لذويه فى الدنيا والآخرة...

ومن ثَمَّ أراد هذا الفريق من الأنصار أن ينالوه ويظفروا به..

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد استخلف أبابكر على الصلاة أثناء مرضه، وفهم الصحابة من هذا الاستخلاف الذى كان مؤيدًا بمظاهر أخرى أضفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر.. ثانى اثنين إذ هما فى الغار..

نقول: فهموا أن أبابكر أحق بالخلافة من سواه..

وهكذا تزعَّم «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه هذا الرأى واستمسك به.. فى حين تزعَّم «سعد بن عُبادة» رضى الله عنه، الرأى الآخر واستمسك به، مما جعل كثيرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون عليه هذا الموقف الذى كان موضع رَفْضهم واستنكارهم..

* * *

ولكن «سعد بن عُبادة» بموقفه هذا، كان يستجيب فى صدق لطبيعته وسجاياه..

فهو - كما ذكرنا - شديد التشبُّث باقتناعه، ومُمعِن فى الإصرار على صراحته ووضوحه..

ويدلنا على هذه السَّجيَّة فيه، موقفه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعَيد غزوة «حُنَيْن»...

فحين انتهى المسلمون من تلك الغزوة ظافرين، راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يُوَزِّع غنائمها على المسلمين.. واهتم يومئذ اهتمامًا خاصًّا بالمؤَلَّفَةِ قلوبهم، وهم أولئك الأشراف الذين دخلوا الإسلام من قريب، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يساعدهم على أنفسهم بهذا التألُّف، كما أعطى ذوى الحاجة من المقاتلين..

وأما أولُو الإسلام المكين، فقد وكَلَهم إلى إسلامهم، ولم يعطهم من غنائم هذه الغزوة شيئًا..

كان عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - مُجَرَّد عطائه - شرفًا يحرص عليه جميع الناس..

وكانت غنائم الحرب قد أصبحت تُشَكِّل دَخْلًا هاما تقوم عليه معايش المسلمين..

وهكذا تساءل الأنصار فى مرارة: لماذا لم يعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حظهم من الفيء والغنيمة.. ؟؟

وقال شاعرهم «حَسَّان بن ثابت»:

وَأْتِ الرسول فقل يا خير مُؤْتَمَن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّد البَشَرُ
علامَ تُدْعَى سُلَيْم، وهى نَازِحَةٌ ... قُدَّامَ قَوْمٍ ،هُمو آوَوْا وهم نَصَرُوا
سَمَّاهُم الله أنصارًا بنصرهم ... دين الهدى وعوانُ الحرب تَسْتَعِرُ
وسارعوا فى سبيلِ الله واعترفوا ... للنائبات، وما خامُوا وما ضَجِرُوا

ففى هذه الأبيات عبر شاعر الرسول والأنصار عن الحَرَج الذى أَحَسَّه الأنصار، إذ أعطى النبى صلى الله عليه وسلم من أعطى من الصحابة، ولم يعطهم شيئًا..

ورأى زعيم الأنصار «سعد بن عبادة».. وسمع قومه يتهامس بعضهم بهذا الأمر، فلم يُرْضه هذا الموقف، واستجاب لطبيعته الواضحة المُسْفِرَة الصريحة، وذهبَ من فَوْره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

«يا رسول الله..

«إن هذا الحىَّ من الأنصار قد وَجَدُوا عليك فى أنفسهم؛ لما صَنَعْتَ فى هذا الْفَيءِ الذى أَصَبْت...

«قَسَمْتَ فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يَكُ فى هذا الحىِّ من الأنصار منها شىء»...

هكذا قال الرجل الواضح كل ما فى نفسه، وكل ما فى أنْفُسِ قومه.. وأعطى الرسولَ صورة أمينة عن الموقف..

وسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وأين أنت من ذلك يا سعد»..؟؟

أى إذا كان هذا رأى قومك، فما رأيك أنت..؟؟

فأجاب سعد بنفس الصراحة قائلاً:.

«ما أنا إلاَّ من قومى»..

هنالك قال له النبى: «إذن فاجمع لى قومك»..

ولابدَّ لنا من أن نتابع القصة إلى نهايتها، فإن لها روعة لا تُقَاوَم..!

جمع «سعد» قومه من الأنصار...

وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتملَّى وجوههم الآسية. وابتسم ابتسامة متألقة بعرفان جميلهم وتقدير صنيعهم..

ثم قال:

«يا مَعْشَر الأنصار..

«مقـالـةٌ بلغتنى عنكم، وَجِـدَةٌ وَجَـدْتمـوهـا عَـلَىَّ فى أنفسكم..؟؟

«ألم آتكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُم الله..؟؟

«وعالَةً، فأغناكم الله..؟؟

«وأعداءً، فَأَلَّفَ الله بين قلوبكم..؟؟

قالوا:

«بلى ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل..

قال الرسول:

«ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار..؟؟

قالوا:

«بم نجيبك يا رسول الله...؟؟

لله ولرسوله المَنُّ والفضل...

قال الرسول:

«أمَا والله لو شئتم لقلتم، فَلَصَدَقْتُم وَصُدِّقْتم:

«أتيتنا مُكَذَّبًا ، فَصَدَّقناك..

«ومخذولًا، فنصرناك..

«وعائلًا، فآسَيْنَاك..

«وطريدًا، فآويناك..

«أوَجَدْتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعَةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا ليُسْلموا، ووكَلْتُكُمْ إلى إسلامكم..؟؟

«ألَا تَرْضَوْنَ يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالِكم..؟؟

«فَوَالَّذِى نفسى بيده، لولا الهجرة لَكنتُ امْرَءًا من الأنصار...

«ولو سلكَ الناسُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصار..

«اللهم ارحم الأنصار..

«وأبناء الأنصار..

وأبناءَ أبناءِ الأنصار»..!!

هنالك بكى الأنصار حتى أَخْضَلُوا لحاهم..

فقد ملأت كلمات الرسول الجليل العظيم أفئدتهم سلامًا، وأرواحهم ثراء، وأنفسهم عافية..

وصاحوا جميعًا و «سعد بن عُبادة» معهم:

«رَضينا برسول الله قَسْمًا وحَظًّا»...

* * *

وفى الأيام الأولى من خلافة عمر ذهب سعد إلى أمير المؤمنين، وبنفس صراحته المتطرفة قال له:

«كان صاحبك أبو بكر - والله - أحبَّ إلينا منك...

«وقد - والله - أَصْبَحْتُ كارهًا لجِوَارك»..!!

وفى هدوء، أجابه عمر:

«إنَّ من كَرِهَ جِوَار جاره، تَحَوَّلَ عنه»...

وعاد سعد فقال:

«إنى متحوِّل إلى جِوَارِ من هو خير منك»..!!

* * *

ما كان «سعد» رضى الله عنه بكلماته هذه لأمير المؤمنين «عمر» يُنفِّس عن غيظ، أو يُعبِّر عن كراهية..

فإن مَنْ رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قَسْمًا وحظًا. لا يرفُض الولاء لرجل مثل عمر، طالما رآه موضع تكريم الرسول وحبه..

إنما أراد «سعد» وهو واحد من الأصحاب الذين نعتهم القرآن بأنهم «رُحَمَاءُ بينهم»..

أراد ألَّا ينتظر ظروفًا، قد تطرأ بخلاف بينه وبين أمير المؤمنين،خلاف لا يريده، ولا يَرضاه..

* * *

وشدَّ رحاله إلى الشام...

وما كاد يبلغها وينزل أرض «حُوران» حتى دعاه أَجَلُهُ، وأفْضَى إلى جوار ربه الرحيم...

* * *

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٨٨٣٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٨١٨-٤	ISBN

١ / ٨٩ / ١٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)